

د. حسين مجيب المصرى

الأدب التركى



دار المعارف

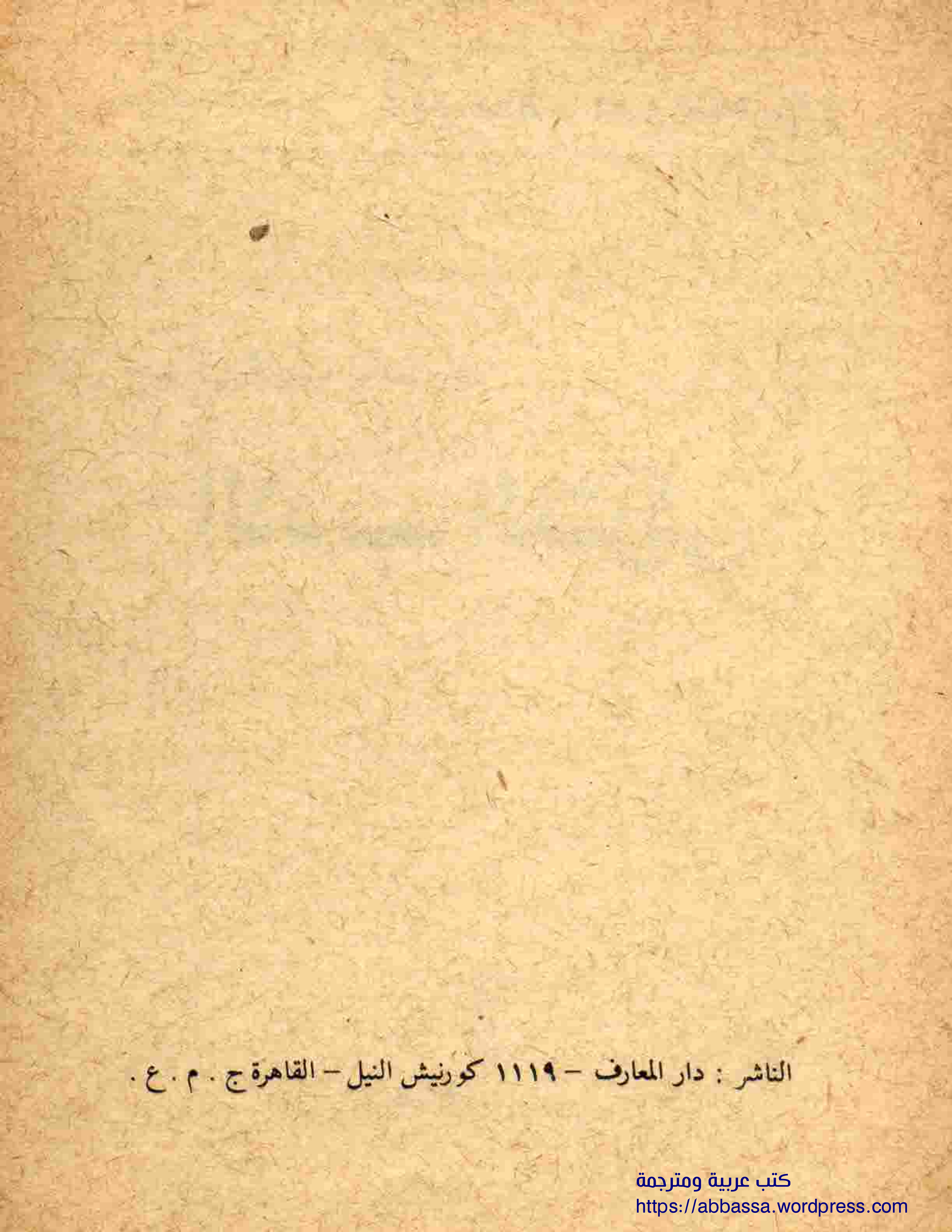
اقرأ ٨٢
رئيس التحرير أنيس منصور

د. حسين مجيب المصرى

الأدب التركى



دار المعارف



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تمهيد

فى هذه القلة من الصفحات يراد بالإفادة أن تكون على وجهها الأكمل ، ونطاقها الأشمل ، وهذا ما يقتضى وجوب جمع الموضوع من شتى أطرافه ، واستنفاد الطاقة فى تقديم الأهم على المهم ، ومراعاة الإيجاز غير المخل بحيث يكون الكلام مشرق الدلالة يُدرك مغزاة على غير مئونة ولا إعنات خاطر ، ولكن ما كان عقد النية على هذا ليصرفنا عن ضرورة الأخذ بالمنهج الأقوم فى البحث ، ومن أخص خصائصه إدلاؤنا برأينا بين آراء تضاربت ، والتعقيب على أحكام بما يصوّبها ولو فى نظرنا وعلى قدر اجتهادنا .

ولسوف يقوم الدليل القاطع من بعد على أننا كنا أحق بهذا الصنيع إذا تبين لنا أن الأدب التركى أفسح المجال إلى أبعد مدى لأقوال تغايرت ووجهات للنظر تنافرت ، مما أوقع فى اللبس حتى المتخصصين من الدارسين ، وهذا باعثنا على محاولة قطع الشك باليقين ، والأخذ بيد طالب المعرفة مما أظلم واستبهم إلى ما أسفر وانكشفت شبهته . ولعلنا بذلك نسلك مسلكاً قويماً يدنينا من غايتنا وهى سد فراغ فى المعرفة ظل شاغراً منذ طويل زمان ، فنحن لا نعرف – ولا نكاد – أدباً إسلاميًّا بقى

مجهولا مسكوتاً عنه مطروحا فى غور النسيان كالأدب التركى وهو الحقيق منا بوقفة عنده ونظرة فيه على أنه أو القديم منه خصوصا يعد الأدب الإسلامى الحق بمعنى أدق ، وهذا ما يجعله الأحق أن نوليه جانبا من عنايتنا ، وحسبنا فى بيان ذلك قولنا : إن الترك حذوا حذو الفرس فى أخذهم بذلك التراث الإسلامى الذى أفضى إليهم عن العرب من قبل ، وبذلك تحصل لديهم تراث حضارة الإسلام التى تعددت عناصرها وتكاملت سماتها فى وحدة جوهرها وتماثل مظهرها ، وازدهارها إلى ما لاغاية بعده لازدهار .

ولقد تلقاه الترك تلقيا مباشرا عن الفرس ، ثم زادوا فيه ما زادوا ، وأبرزوا فيه ما لا يمحى من أثرهم ، وما لا سبيل إلى تناسيه من طابعهم ، وبلغوا به حيث لم يبلغ غيرهم ، فكانوا بذلك الجيل الخالف الذى تقدم خطوة عن الجيل السالف ، ولم يخف على الترك من علماء وأدباء هذا من خصائص تراثهم ، وهو تعدد الأصول وتشعب الفروع ، فكان دأب أهل العلم والأدب أن يدرسوا العربية والفارسية إلى جانب التركية .

على أن هذا التحصيل تحصيلٌ للغات الإسلام الأمهات ، وهو ضرورة ثقافية لا غنية لهم عنها ، ولا غرو ؛ فالعربية لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والشرع الحكيم وما عبر به العلماء والفصحاء ، والفارسية لغة ذلك الشعر الذى تضمن من المعانى ما دق ورق ، ومن

الألفاظ ما حسن وراق ، كما أنه لسان المتصوفة الذين صفت أرواحهم وسمت ، وفى آفاق من الطهر حلقت ، فأغنوا الإنسانية بأدب رائع فى رمزيته منقطع الشبيه فى روحانيته ، وقد دعموا بهاتين اللغتين وهذين الأدبين لغتهم وأدبهم ، فزخرت التركية بما لا يحصى كثرة من الألفاظ الفارسية والعربية .

وحقيق بالذكر أن الألفاظ العربية وجدت سبيلها إلى التركية عن الفارسية المفعمة بالعربية منذ تأثرها بالعربية بعد الفتح العربى لفارس ، أما الأدب التركى فاقتبس عن الأدب الفارسى فنونه ، وإذا عرفنا أن الأدب الفارسى قابسٌ جلَّ فنونه عن أدب العرب أيقنا أن وحدة المبنى والمعنى قد عقدت بين هذه الآداب الثلاثة صلة موصولة ؛ ومن هنا فالعقيدة واللغة والأدب شكلت بين الترك والفرس والعرب تلك العروة الوثقى التى استحكمت بفضل الترك الذين كانوا الأخيرين زمامنا ، وتم بهم كيانها .

والحقيقة التى لا تحتمل أى شك ولا تأويل أن العرب والفرس والترك فى الجنس واللغة يختلفون وإن كانوا بالدين الحنيف يأتلفون ، ولكن للترك حسن صنيعهم فى إضافة مظهر آخر لما اتصل بينهم من أسباب وانعقد من أواصر ، وهو يتجلّى كل التجلى فى لغتهم وأدبهم وأفانين الثقافة لديهم .

وإن التأمل ليقف بنا وقفة هنا للرد على آراءٍ فى الترك وأدبهم لا تخلو

من موضع للتجريح أو تتجافى عن الحق والصواب . والعجب الأعجب أن بعضا منها منسوب إلى علماء ومتعلمين ، وحاشى لنا أن نتصدى لتفنيدها رغبة منا فى الوقوف من الترك موقف المتعصبين لهم على غيرهم أو المغالين فى تمجيدهم ووصفهم بما ليس فيهم ، ولكن ما أفنينا العمر فيه من دراسة لأدبهم وآداب الشعوب الإسلامية يحرك همتنا إلى الوقوف منهم موقف المحققين المنصفين القادرين على تصويب أحكام أو تبديد أوهام من ركبوا الشطط ، أو أدلوا برأى فى أمر غابت عنهم معرفته . ولم تقع لهم به خبرة ونسوق لهذا أمثلة هى من قبيل القليل الدال على الكثير.

فإجماع المثقفين منعقد على أن الأدب التركى ليس له من وجود ولهم فى هذا الحسبان عذرهم ، ومما يشفع لهم أنهم لم يطلعوا على شىء فى هذا الصدد ، وكان المتوقع أن يكون مثل هذا الرأى لهم فى الأدب الفارسى لولا ترجمة رباعيات الخيام إلى كثرة من اللغات ، وإن جانبوا الصواب فى زعمهم أن الخيام شاعر الفرس الأوحد وشعره هو الأروع الأجود .

وفى الحق أن الأدب التركى انبثق فى الوجود فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وساير حياة الترك فى تطورها إلى يومنا هذا ، ولا يسع مثقفاً أن يجهل بعض الحقائق عنه من حيث كونه أدبا إسلامياً له الأصالة والرجحان فى ميزان الأهمية ؛ لأنه تتمة على الأدب العربى والأدب الفارسى وما أشبهه بشرح على متن ، وذيل لأصل ، والنهاية التى

لا تنفصل عن البداية ؛ فالعلم به يشبه العلم بمجموع الأدب الإسلامى الذى يتشكل من أدب العرب والفرس والترك .

ومن علماء الغرب من ذكر عنه مالا يستقيم فى الفهم ، ولا يصح على إطلاقه ؛ فهذا مستشرق نمسوى أخرج كتابا منذ مائة وخمسين عاما أو ما يقرب بعنوان : «تاريخ فن الشعر العثمانى» ، وقد علل هذه التسمية بأن الشعر التركى لم يكن إلا تقليدا للشعر الفارسى ، وهو يريد أن يقول : إن الشاعر التركى لم يكن شاعر الإلهام والسجية ، بل كان أشبه ما يكون بذلك الصانع الذى يصنع التحفة طبق أصول فنية معروفة ، ولا فضل له إلا فى إحكام تقليد النموذج الذى يواجهه ، وإتقان الصنع الذى لا يستلزم منه إلا دربة بالعمل اليدوى وحده ، والصلة مُنْبَتَّةٌ بينه وبين الملكة الفنية والقدرة الفطرية والتذوق الجمالى ! .

وللرد على هذا الرأى نشير إلى حقيقة لا مراء فيها ، وهى أن ظاهرة التأثير والتأثر معروفة مألوفة فى الأدب ، أى أدب كان ، ولقد أخذ شعراء الترك عن شعراء الفرس كأخذ شعراء العرب المتأخرين عن المتقدمين ، ونحن لا نبالغ ولا نتزيد إذا قلنا : إن الشعر العربى إلى عهد ليس ببعيد كان شديد الشبه بشعر القدماء فى كل أوجُلّ خصائصه ومن الشعراء العرب فى الأندلس من طاب لهم تقليد شعراء بغداد ، وتأثر بلغاء الرومان ببلغاء اليونان ، ولما اطلع الشاعر الألمانى جوته على ترجمةٍ لشعر الشاعر الفارسى حافظ الشيرازى ملك عليه هذا الشعر إعجابه ،

ووقع فى نفسه أجمل موقع ، وراعه ما فيه من سمو العاطفة وقدسية الفكرة وجمال الرمزية ، فامتزجت روح شاعر الألمان وروحُ شاعر الفرس ، وأخرج جوته ديوانا له عام ١٨١٩ بعنوان : (الديوان الغربى الشرقى) ، وهو مجموعة رائعة من أجمل الشعر الغنائى تأثر فيه بحافظ الشيرازى إلى حد جعل فهم شعره متعسرا أو متعذرا من غير شرح يرد فيه المعانى العجيبة والرموز الخفية إلى أصولها التى أخذت عنها فى الشعر الفارسى !

ومن التحكم والتعسف أن تتمثل شاعرا منقطع الصلة تماما بينه وبين من قبله ومن بعده ! فلم يبق إلا أن يكون رأى هذا المستشرق رأيا لا يحمل على محمل الجد ، وهذه لمحة خاطفة لم نرد بها إلا الإشارة تهيئ الفكر لتفهم ما سنبسط القول فيه تفصيلا عند كلامنا عن شعراء من الترك غلب على بعضهم الميل إلى الاتباع ؛ كما تميز الآخر بالابتداع .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فلنورد هنا ما يجرى هذا المجرى من قول مستشرق ألمانى أصدر فى أوائل القرن العشرين كتابا فى تاريخ الأدب الفارسى جاء فيه قوله : إن التركى مشغوف بحياة الواقع والعمل ، زاهد فى إعمال الفكر ، منصرف عن إطالة التأمل ، غير أنه مع هذا تذوق أدب الفرس ، فألف كتباً تركية فى لغتها فارسية فى معانيها ، وكان على الشاعر التركى أن يصمت مليًّا إلى أن يجود عليه شاعر فارسى بمثال يُحتذى ! .

وعندنا أن هذا خطأ لايحتمل الصواب ، وحكم لا حدود له ولا قيود ، فما نعلم : لِمَ خُصّ التركى وحده بالرغبة فى الواقع والرغبة عن الخيال إلا أن يكون قد بدر إلى فهمه تعارض الشعر والخيال مع طبيعة التركى المحارب المجاهد فى سبيل الله ، كأن الشعراء لم يظهروا بين الفرس والعرب من الشجعان والفرسان ؟ وإن كان هذا شأن التركى فلِمَ رق قلبه للشعر الفارسى ؟ وكيف نظمه تركيًّا فى اللفظ فارسيًّا فى المعنى ؟ وكان الوجه أن يقال : إن لغة الأدب عند الترك شديدة التأثر بالفارسية والألفاظ توجه المعانى وتشكلها ، وكان هذا هو الأعم الأغلب ، بيد أننا سنجد من شعراء الترك من عكسوا تلك الآية ، فكانت لهم ذاتيتهم وغنائيتهم والخاص من شاعريتهم التى تميزهم من الفرس ، بل رفعت بعضهم فوق بعض درجات !.

ولقد ذيل أستاذ تركى معاصر كتابا له فى فنون الشعر التركى القديم ظهر عام ١٩٤٣ بأحكام لا نرتضيها ، ونرى أنه جانب الصواب فيها . ومجمل ما قاله : إن هذا الأدب القديم لم يعبر عن حياة الجماعة ! والشاعر محدثنا عن نفسه ليس إلا ، ونعدم فى شعره الأصالة ، ولا يصف جمال الطبيعة ، والمرأة فيه من خلق خيال الشاعر ، كما يعدم الطابع المحلى والعشق الإنسانى الحق ، ولا يعد أدبا يتغنى بالوطنية ، ولا أدبا دينيًّا ولا حماسيًّا ، وهذا كله لا يزن عندنا شيئا ، ونرى من الخير أن نوده إحقاقا للحق ، وإبرازا لسماته وصفاته ، وعلى وجه الإجمال فى هذا

التمهيد قبل التعرض لها بعدُ على وجه التفصيل ، وما ذاك إلا ليقوم البرهان على أساس سبق طرحه ، وتتأكد المعرفة من بعد بذلك القدر الذى تحصل لنا منها من قبل ، فنقول : إن الأدب التركى القديم صورة صادقة ناطقة لحياة الجماعة ؛ لأنه المعبر عن الهواتف الروحية التى هتفت بها والتيارات الفكرية والمذهبية التى غمرتها بدليل أن الشعر التركى نشأ صوفيا ، وقد كان للتصوف الذيوع والشيوع فى أرجاء الأناضول ، وظل راسخا فى نفس الترك قرونا بعد قرون ، والشاعر التركى ككل شاعر إذا حدثنا عن نفسه فقد حدثنا عن أنفسنا على حد سواء ، والصوفى بالذات معبر عن مذهبه الذى يشركه فيه غيره وما كان أكثر الصوفية بين الترك ! أما الأصالة فسنبينها ونسوق الدليل عليها فى دراستنا للشعراء .

والمرأة فى الشعر التركى القديم طيف خيال لدى شعراء الصوفية ؛ فكيانها رمزى ، والتغزل فى محاسنها مجرد إيما إلى العشق الإلهى ، وتفسير للحقيقة بالمجاز ؛ وكذا الشأن فى الشعر الفارسى ، ونحن لا نكاد نعرف فى شعراء الترك والفرس امرأة معشوقة على الحقيقة ، اللهم إلا ما ورد فى الشعر القصصى من نسج الخيال ؛ فما وجد عند الترك والفرس الشعراء العشاق وصواحبهم كما هى الحال عند العرب ، وإن عرفنا شاعرة عاشقة عند الترك ذكرت اسم من تهواه فى شعرها ، ولكننا فى هذا المقام لا نملك تناسيا لروعة وصف المرأة فى هذا النمط من الشعر ذى المعنى القريب غير المقصود والبعيد المقصود والذى يمكن فهمه على الحقيقة

والمجاز فى وقت معا . أن مثل هذه الرمزية من أجمل خصائص الشعر العالى ، وبها تخفق الروح بنا جناحا بين سماء الخيال وأرض الواقع ، وهذا غاية ما يطيب للنفس تحقيقه من روعة الفن .

والطابع المحلى كأوضح ما يكون فى شعر الترك القديم ؛ كما فى وصف المدن وأبنيتها وأهليها والمألوف من عاداتهم ووصف الطبيعة مما لا يخلو منه ديوان . ومن الشعراء من أنطقوا الطبيعة بلسانهم وجعلوها مرآة لنفسهم ، وهذا شأن المجيد المطبوع ، أما القول بأن هذا الأدب لم يكن أدب وطنية فمن نافلة القول ؛ فما عرفت الوطنية بمفهومها المعهود عند الترك إلا منذ مائة من الأعوام ، وكانت قوميتهم من قبل إسلامية ، فكانت جيوش السلطان إذا خاضت غمار الحرب فقد خرجت جيوش المسلمين للجهاد فى سبيل الله ، وما دفعت إلا أعداء الدين عن أرض المسلمين ، وما عرف الأتراك لهم ما يعرف بالوطن ، فمن التحكم أن نطلب إليهم ما ليس لديهم ، أما ألاّ يُعد هذا الأدب دينيًّا فالواقع يناقض ذلك ويعانده . وإذا عرفنا أنه إنما نشأ لنشر تعاليم التصوف وتَقْعِيد قواعده أدركنا أنه استمد كيانه من صميم الدين ، وذكر هذا موصول بذكر ما يعرف فيه بمولد النبى ، وهو منظومات فى سيرة النبى ﷺ تتضمن التعبير عن عاطفة الشاعر نحوه وتنطق عن قلب المؤمن الموقن . ونحن لا نجد فى التركية ديوانا ولا كتابا منظوما يخلو من نعت النبى ومدحه ، وليس فيه من شعر الملاحم ما فى أدب الفرس مثلا ،

ولكننا إذا عددنا شاهنامة الفردوسى شاعر الفرس أعظم ملحمة فى أدبهم فلا ينبغى نسيان ترجمتها إلى الشعر التركى التى أنجزها الشاعر شريفى فى القرن السادس عشر الميلادى .

ولا ندرى على أى أساس أقام هذا العالم التركى أحكامه ؟ وفى أى مقياس وضع هذا الأدب ؟ وكأنما أراده على صفات آداب أمم أخرى فى عصورها الخوالى والتوالى ، وذهب عنه أن الأدب من حيث كان تعبيرا عن الحياة فهو معبر عنها ، ولكن فى الصورة الخاصة بحياة الأمة التى يتعلق بها ؛ فاختلاف حياة العرب عن حياة الفرس والترك واليونان مثلا يترتب عليه اختلاف آدابهم فى سماتها ، وهذا ما يفضى بنا إلى ذكر الترك الذين نتصدى للتعريف بأدبهم : فهم الأتراك العثمانيون نسبة إلى السلطان عثمان الأول الذى أقام دولتهم فى آسيا الصغرى ، فدخلوا التاريخ فى نهاية القرن الثالث عشر على وجه التقريب ، وهؤلاء الأتراك العثمانيون عشيرة من العشائر التركية التى كان لها مستقر فى وسط القارة الآسيوية ، غير أنها أزعجت عن ديارها وتعلقت بأذيال الفرار أمام زحف المغول فيممت وجهها شطر غربى آسيا تحت لواء رئيسها سليمان شاه ، ولما مات خلفه ولده أرطغرل الذى شاهد جيشين يقتتلان ، وانساق بحميته ومروءته إلى بذل المعونة للفئة التى كادت الهزيمة تلحق بها ، فكان لها الانتصار بعد الانكسار ، ثم عرف أن فئة من المغول أغارت على أرض علاء الدين السلجوقى سلطان قونية ، فأجازه السلطان

بمقاطعة وأنعم على ابنه عثمان بلقب بك ، ولما تمزق ملك السلاجقة عام ١٣٠٠ م أقبلت الدنيا على عثمان وتهيأ له أن يبسط سلطته ويقيم دولته ، ففتح شمال غربى آسيا الصغرى ، وتوطدت دعائم الدولة العثمانية منذئذ . ثم اتسع سلاطين العثمانيين فى الفتوح ، فوسعت رقعة ملكهم مشارق الأرض ومغاربها وهم جد فخورين بعثمانيتهم ، وينعتون غيرهم من الشعوب التركية بقلة الإدراك والتخلف عنهم فيما بلغوا من عزة ورفعة شأن ! .

وبعد أن عرفنا هذا مما يتعلق من أدب الترك بأمر ذى بال — لا نرى خاتمة لذلك التمهيد سوى تمثل أدبهم فى عصوره ، ومبلغ علمنا أن المؤرخين لم يختلفوا فى تقسيم أدب إلى عصوره كاختلافهم فى تقسيم الأدب التركى ، ولا نخوض فى اختلافهم ؛ لأن الكلام فيه كثير متسع ، ومرده إلى أن أسرة حاكمة واحدة حكمت العثمانيين ، فلم يكن فى الإمكان تقسيمه على حسب تقسيم الدول ؛ كما هو الشأن فى أدب العرب والفرس على سبيل المثال ، وهنا نجتهد برأينا ، فنربط تاريخه بعهود بعض السلاطين جهد المستطاع ونقسمه إلى أدب قديم له دوران .

دور يبدأ فى عصر السلطان عثمان الأول وينتهى قبيل عهد السلطان سليمان القانونى ، فزمانه من القرن الثالث عشر إلى النصف الأخير من القرن الخامس عشر أو نحو ذلك .

ودور بدايته عهد سليمان القانونى ونهايته فى آخر عهد محمود الثانى ،

فهو بين القرن السادس عشر ومنتصف القرن التاسع عشر. ويلى هذا الأدب القديم أدبٌ حديث فاتحته عهد السلطان عبد المجيد ولا خاتمة له ، لأنه ممتد إلى يومنا هذا إذا قطعنا النظر عما يمكن أن يسمى بالأدب المعاصر. وللترك أدب شعبى على امتداد تاريخ أدبهم الفصيح نفرد له الفصل الأخير من هذا البحث ليبدو فى خاص من كيانه ، وينحصر فى مختلف من ملامحه .

الأدب القديم

قبل أن تقوم للعثمانيين فى الأناضول دولة أطبق على تلك الأرض بخاصة وغربى آسيا بعامة من عبوس قاتم وفزع دائم ؛ لما حاق بالخلق من غارات المغيرين وظلم الظالمين ، وما لج من صراع واشتد من نزاع بين ذوى القربى : فدب دبيب السأم فى النفوس من دنيا شاه وجهها ، وقل خيرها ، وكثر شرها ، فانصرف الناس بقلوبهم عن دنياهم إلى أخراهم ، فمالوا كل الميل إلى التعبد والزهد والتصوف ، وحسن تقبلهم لتعاليم الصوفية الذين حفلت أرجاء الأناضول بزواياهم وتكاياهم ، وتزاحم المريدون على حلقات شيوخهم يسمعون منهم ويعون عنهم ، وكان رأس الصوفية وشيخ شيوخهم جلال الدين الرومى ، وهو أكبر شعراء التصوف عند الفرس وأشهرهم . قدم الأناضول فى صباه ، فحسنت له مستقرا ، وفيها نشر طريقته المعروفة بالطريقة المولوية . وله فى الفارسية كتاب منظوم يسمى (المثنوى) يعد أهم كتب التصوف . غير أن فهم تعاليمه كان للخواص من مريديه الذين يعرفون الفارسية لغة العلماء والأدباء ، لا لعوامهم الذين لم يصيبوا من العلم نصيبا ، ولا عرفوا إلا التركية لغتهم . ووجد الشيخ مس الحاجة إلى أن يعلمهم بلسانهم الذى

به يعلمون ، فنظم لهم بالتركية أشعاراً تتضمن تعاليمه وأحكام طريقته . وكانت هذه الأشعار باكورة الشعر التركى فى الأدب التركى العثمانى ، وها هو ذا يظهر بمظهر الواعظ المرشد إلى طريقته الصوفية وهو يقول :

(رافق بغيضا أو خليلا ؛ فسوف يهديك فى الطريق طويلا ، ياحملى الأسود ، إن الذئاب حيالك ؛ فتَمَسكْ براعيك تمسكْ ، وألق إلى سمعك ، كن من الروم أو الترك أو الفرس ، ولكن تناول لغة من لا لغة لهم بالدرس) . فهو يحدد الصلة بين الشيخ والمريد ، ويدعو إلى تلقى تعاليم التصوف ، على أن التصوف منبعث من القلب الذى رق له وليس كلاما للسان يجرى عليه ، وهو الروح الإنسانية إذا صفت وسمت فجمعت الناس على عشق الذات الإلهية من غير ما تفرقة بين أجناسهم وأوطانهم .

وخلف جلال الدين الرومى بعد موته ابنه المسمى بسلطان ولد الذى عاش فى عهد السلطان عثمان الأول ، وقد نظم كتابا معروفا برباب نامه : أى كتاب الرباب ، عقد فيه الأبواب ، ورتب الفصول متناولا بالإيضاح طريقة أبيه وما غمض من أحكامها ، وخفى من رموزها فى تركية يسهل فهمها والأخذ منها ، وهذا الكتاب أول كتاب فى الأدب التركى ، وأول أثر شعرى ، وبه شاعت الطريقة المولوية فى الترك ، وعمرت بها قلوبهم ، وما كانت لسلطان ولد نزعة شعرية فنية ، بل رغبة تعليمية فى شرح طريقة أبيه الصوفية وتعميمها ، وكان نعم من حمل الأمانة ، ويؤيد ذلك قوله :

(اعلم أن مولانا قطب الأولياء ، فاعمل بكل ما فى كلامه جاء ، له كلمات هى من الله رحمات ، تضىء بقراءتها عيونك فى ظلمات ، واضرع إلى ربك واجأر بالدعاء ، والتمس أن يبسط عليك من رحمته الأفياء ، وقل : اللهم افتح عينى لمشاهدتك واملأها بَصَرا ؛ حتى أمضى إلى البحر مثل القطر ، وأجد لى فيه مستقرا ، القطر والبحر لابد أن يتحدا ، ولن يكونا شيئين بل شيئا واحدا) . وفى هذا من قوله تفسير وتمثيل لمذهب فناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية .

ونحن نرى فى هذا حقيقة نذكرها على أنها ظاهرة لها أهميتها فى تاريخ الأدب التركى : ألا وهى أن هذا الأدب واجه الحياة فى عصره وبيئته ، فوقفنا منه على مدى انتشار التصوف بين خواص الناس وعوامهم إلى حد أن يستمد الأدب وجوده لمجرد التعبير عن أحكام التصوف وكشف غوامضها بحيث تنجلى فى العقول والقلوب ، ويدركها أهل العصر والبيئة على وجهها ، وهذا ما كانوا به مشغولين وإليه منجذبين .

وبسبب من ذلك نجد شاعراً آخر يصور لنا ببيئته الروحية فى صدور عن طبع واسترسال على سجية .ويحدثنا عن واقع الحال فى قومه وهو متحدث عن نفسه ، هذا الشاعر هو يونس أمرة التركى الأمىّ الذى لا يكتب ولا يحسب ، ولا ينظر فى كتاب يتعلم منه ، بل يتلقى ما يتلقى مما يطوف بسمعه ، ويدور حوله من كلام الصوفية ، فيصادف هوى فى قلبه المؤمن ، ويستندى ملكته الشعرية ، وتدب فيه نشوة العشق

الإلهى ، فينطلق منه اللسان بالشدو الجميل ، ويبدو شعره مع شعر سلطان ولد على طرفى نقيض .

فالأول يعلم ويُقَعِّد القواعد ، ويعين الأصول فى أسلوب لا يحاول فيه البلاغة ، وأما الآخر فيردد ما عرف بالسماع ، ويعبر عن غنائية وشاعرية فطرية بشعرٍ لا أثر فيه لتكلف ولا تعسف ، ويجعل من الشعر الصوفى فنًّا شعريا يشوق ويروق فيقول : (بين الأرجاء ، والعشق أفرغ علىّ حمرة للدماء ، لست مجنونا ولا من العقلاء ، تعال وانظر ما صنع الهوى بى ، لى أحيانا من الرياح شدة عصفها ، وللمجرفة ما تثيره من غبارها ، وأشبه السيول فى خريرها ؛ تعال وانظر ما صنع الهوى بى ، أمضى من بلد إلى بلد ، أسأل عن الحبيب كل أحد ، من يعلم فى غربتى ماذا أجد ؟ تعال وانظر ما صنع الهوى بى ، إن عِشْقك أسكرنى ، وخلب لبى وأسقمنى ، وانتوى أن يقتلنى ! تعال وانظر ما صنع الهوى بى أنا يونس المسكين فاعرفنى ؛ فإن العشق شردنى ، وفى كل موضع جرحنى ، تعال وانظر ما صنع الهوى بى !) .

فهذا مثال لشاعرية متدفقة تدفقت بها روح من لم يملك أن يضمر غير ما يظهر ، وفى التعبير سذاجة وانطلاق لم يصقل منها نظر فى كتاب ولا تحصيل علم . غير أن ذكر الشاعر للقتل يستوقفنا ؛ فقد ألف الصوفية ترديد ذكر القتل والموت ، بمعنى أن الموت حياة تفضّل بها الحبيب على العاشق والوفاء للحبيب بالوفاة والموت فيه حياة ؛ لأن الميت خارج عن

دعوى قدرته وهذا ما يظهر أن القدرة لله ؛ فإنه مات الموت الاختيارى قبل الموت الاضطرارى ؛ فموته حياة لانكشاف الحياة الحقيقية الأزلية ، وهذا ما يستدل منه على أن مبادئ التصوف وتعاليمه كان لها الشيوع من حوله ، فاستوعب منها ما شاء الله أن يستوعب وضمنها ما قال من شعر صوفى .

ويجرى هذا المجرى ما أورده من تعاليم جلال الدين الرومى على الخصوص ، ويونس أمرة لم يكن شيخا ولا معلما ؛ وإنما استجاب لفطرته ، وكان فى العشق الإلهى هائما وبه مترنماً .

ومما نستكمل به صورة ناطقة لحياة الترك الروحية فى هذا العصر المتقدم — منظومة تعرف بوسيلة النجاة أو مولد النبى ، والمفهوم الاصطلاحى للمولد عند الترك هو المنظومة التى يمدح فيها النبى ﷺ مع ذكر صفاته ومحامده ، وهذا المولد لسليمان جلبى الذى عاش فى مدينة بروسة بالأناضول على عهد السلطان أورخان ثانى سلاطين آل عثمان ، وكان من مشايخ الصوفية وإمام مسجد ، أما باعثه على نظم هذا المولد فيقول فيه الرواة : إنه كان ذات يوم يلقى السمع إلى أحد الوعاظ ، وجرى على لسان الواعظ قوله : إنه لا يفضل محمداً ﷺ على غيره من المرسلين ، وحجته قوله تعالى فى سورة البقرة (لا نفرق بين أحد من رسله) . واتفق أن كان بين المستمعين عربى من أهل الشام ، فما سمع هذا حتى تغيّر وجهه غضبا وصاح على الواعظ ، ورفع صوته

إليه بقوله : (أيها الجاهل ، لا بصَر لك بالتفسير ، ولقد ذهلتَ عن التشابه والناسخ والمنسوخ ؛ فالمقصود من تلك الآية عدم التفرقة بين الرسل فى أمر الرسالة والنبوة لا فى مراتب الفضل ، أما إذا صح هذا فى رأيك فكيف يفسر قوله تعالى «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض»)؟ . وعاد العربى إلى بلده مغيظا محنقا ، واستَفْتى فى قتله لما اعتقده من كفره ، وتبين من ضلاله فأُفْتى ، فمضى إليه وقتله ! .

ونظم سليمان جلبى مولده بدافع فكرى وآخر عاطفى ؛ فلقد أراد رد الشبهة عن الحق فيما أثار الجدال وأفضى إلى اختلاف الرأى والتباس الأمر ، كما أخذه مرّ الأسى لما كان من جرأة على رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام والتردد فى قطع الشك باليقين فيما يتعلق بفضل سيد الأنبياء والمرسلين ! .

والمولد فى عدة أبواب ، وأول ما يطالعنا منه مقدمة بالعربية هذه سطور منها : (الحمد لله الذى جعل محمدا سبب كل موجود ، وشرف كل مخلوق ، وأعز كل مولود ؛ وفضله على الأنبياء بالشفاعة العظمى ، والحوض المورود ، وقرن اسمه باسمه تعظيما لشأنه وترغيما لشيطان الحسود . وهو عند الله المحبوب المطلوب المحمود وملائكة الرحمن له أنصار وأعوان وجنود ، وكلّمه الشجر والمدر والجلمود ، ومحبه فى الدنيا والآخرة مقبول مودود ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذى هو مظهر الخلق والجود ، والشفيع والمشفَّع فى العرصات فى اليوم الموعود) .

ولهذا المولد عند الترك منزلة لا تسامى من حيث الضمن والاعتبار وروعة البيان : قال الرحالة التركى أوليا جلبى فى حديثه عن مدينة بروسة . إن مولد سليمان جلبى الذى يتلى فى بلاد العثمانيين وغيرها من بلاد المسلمين شعر معجز وسهل ممتنع ؛ كما قال كاتب تركى قديم : إنه اطلع على مائة مولد ، فما وجد فى واحد منها شبه ما وجد فى مولد سليمان جلبى من رقة المعنى وجمال اللفظ واتقاد العاطفة ؛ كما يسميه كاتب تركى حديث جوهرة أدب الترك !

والشاعر صوفى كما أسلفنا ، وتصوفه يتجلى فى فرط محبته للرسول الكريم ؛ لأنه فى رأيهم أكرم من عشق الذات الإلهية ، وفى باب قَصَره على وفاته ﷺ يقول : (وإذا ما طرقت هذه الكلمة سمعا للبحار فلتحترق بدخان صعدته ما فيها من نار ، فأبك عينك مرير البكاء ، واجعل روحك لحبه الفداء ، من سمع هذا ولا دمع له فى المآقى ، ولم يكتو منه القلب لذاك الفراق — فلن يكون إلا أخس من حجر وشجر ، ولا تسمِّه بشرا وإن كان أعظم البشر ؟) .

وبعد أن عرفنا الشعر الصوفى عند يونس أمرة فى ألحان الوجدان ، ولدى سليمان جلبى فى إشراق الإيمان نعود إليه فى نزعته التعليمية إذا ذكرنا شاعرا يسمى « عاشق باشا » تسمى بالعاشق على أنه صوفى يعشق الذات الإلهية ، ولقبه السلطان عثمان الأول بلقب باشا ، لأنه كان منحدراً من أسرة رفيعة النسب ؛ كما كان ثريًّا واسع الثراء إلا أنه خرج

عن ماله للفقراء ، وله منظومة بعنوان (غريبنامه) بمعنى كتاب الغريب ، لها ديباجة بالفارسية يورد فى خاتمتها قوله تعالى فى سورة إبراهيم : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، وهذا من الدليل على رغبته فى أن يعلم قومه مالم يعلموا بتركيتهم التى لا تعرف كثرتهم سواها ، وهو فى هذا من صَنيعهِ مذكُرنا بجلال الدين الرومى وولده فى دافعهما إلى النظم بالتركية مع فارق لعله رغبته فى أن ينهج منهجهما ، وهو تركى وهما فارسيان ، ولكن مما يقرب بينه وبينهما أنه نظم فى نفس البحر والنمط الشعرى الذى نظما فيه ، كما أنه يتصدى للتصوف الفلسفى والجانب الخلقى منه خصوصا .

ومن عجب أنه ذكر فى كتابه اسم الله بالتركية والفارسية والعبرية واليونانية ، ويقول : إن الأديان على اختلافها متحدة فى معرفة الخالق وعبادته ، وهذا مبدأ معروف لدى الصوفية ، وغريبنامه هذا يخلو خلوًّا تامًّا من جمال البلاغة ، وما ذاك إلا لأن صاحبه رمى فيه إلى غرض تعليمى محض . ولعاشق باشا أشعار فى التصوف إلا أنها تعدم النزعة الغنائية ، كما أن له قصيدة من مائتى بيت بعنوان (فقرنامه) بمعنى كتاب الفقر ، والفقر هنا بمعناه الاصطلاحى عند الصوفية ، وهو خلو اليد من الشىء وخلو القلب من الرغبة فيه ، وهم القائلون : الفقر فَخْرِى ؛ كما قيل : إنه بداية التصوف . وفى تلك القصيدة يشبه الفقر بطائر حميل طار عن الحضرة الإلهية بحثا عن رفيق له يحط عنده ، فحط عند خير

البرية ﷺ بعد أن آثره على العرش والكرسى والجنة ! فكأن (عاشق باشا) الذى يعده معظم مؤرخى الأدب التركى شاعر الأتراك العثمانيين الأول نظم الشعر فى غرض واحد ، غير أنه خالف من قبله فى قدرته على عرضه فى صور شتى من التعبير ، ويمكن تقسيمه أقساما ثلاثة : أولها شعر تعليمى ينحو فيه منحى من وطد الدعائم لنشأة الشعر التركى ، والثانى يردد المألوف المعروف مما يردده المتصوفة ، أما الثالث فيتقدم به خطوة نحو الإجادة ، فيضمنه رمزية تخرجه عن كلام ليس عليه طلاوة ولا رونق . وهنا لفتة تَحين منا إلى تلقيب السلطان هذا الشاعر بالباشا ، لأننا نرى فى ذلك أول صلة لشعراء الترك بسلاطينهم ، وهى صلة كان لها واضح أثرها فى تطوير الشعر التركى وإدخال فنون عليه لم يكن له عهد بها .

فهذا شاعر يسمى (شيخى) اتخذ من الكحالة حرفة له تدر عليه رزقه ، وجلس فى دكان له يعالج مرضى العيون ، وعُرِف بالحذق فى صناعته حتى قيل : إنه كان يقتدر على محو الحمرة من عين الشمس والصفوة من عين القمر ! ، وأقبلت عليه الدنيا حين اتصلت الأسباب بينه وبين الأمير سليمان بن بايزيد الأول . ولما أسقم الهم سلطانا هو محمد الأول لما حاق بعسكره من هزيمة استدعى (شيخى) ؛ ليقع على معرفة الداء ويصف الدواء ، فقال : لا شفاء له إلا بالسرور ! واتفق أن دخل على السلطان من زف إليه البشرى بانتصار جنده ، فابتهج السلطان

وذهب عنه ما كان به من داء ، ورأى أن يجزى طبيبه الشاعر على مهارته وصدق فراسته . فأقطعه ضيعة ، ولما مضى لتسلمها وجد لها صاحبا أبى تسليمها ، ودافع بسلاحه عنها ، وذبح رجال شيخى الذى كاد يهلك من الهالكين ؛ ولقد حرك ذلك الحادث شاعريته فنظم منظومة عنوانها (خَرْنامه) بمعنى كتاب الحمار ! انبرى فيها لوصف ما وقع ، فصور مَنْ فى الضيعة تصويرا تمثيليا وسماهم بأسماء الحيوان فى سياق قصصى ، وهو يريد هجاءهم متهزئا متهكما ، وجنح إلى التخييل والتمثيل وتفسير الحقيقة بالمجاز ، لا لشرح أحكام التصوف ؛ كما درج على ذلك شعراء الفرس ، بل طوع ذلك للتعبير عن الخاص من شأنه ، فهبط بالرمزية من آفاقها الصوفية العلوية إلى حيث تفسر بها الحياة الدنيوية ، وتجاوز بها الموضوعية إلى الذاتية فهو القائل : (كان حمار موهون هزيل ، ناء به حمل ثقيل ، حمل الماء تارة وأخرى حمل الحطب ، فإذا هو فى بلاء وتعب ، وامتلأ جسمه بالجراح ، فما آوى إلى حظيرته ولا استراح ، وهو الذى لم ينصب أذنيه لليث الغاب ، ولا اكترث قط بالذئاب ، وأدركت صاحبه الرحمة عليه وإلى المرعى مضى به ، وما بلغ الحمار المسكين المرعى حتى شاهد فيه أبقارا ترعى ، منها ما قرونها كأهلة السماء ! ومنها ما على هيئة القسىّ فى الانحناء ! ورأى الحمار هذا فقال : يا عجبا للزمان ! كيف وضع على رءوس البقر التيجان ، وابتلانا بالفقر والحرمان ؟) فشيخى يقص ما وقع له من السلطان وخبره مع صاحب

الضيعة ورجاله فى تلويح أجمل وأوقع من التصريح وهذه المنظومة أول ما قيل في الهجاء عند الترك ، وهو هجاء مستملح غير مستقبح ؛ كما ترجم عن الشعر الفارسى منظومة ذات مغزى صوفى ، بيد أنه فى ترجمته المنظومة لم يلتزم لحرفية ، وأضاف إليها ما أضاف من عنده .

ومادمنا على ذكر من بعض السلاطين فلا يفوتنا هنا أن نشير إلى ظاهرة مرموقة فى الأدب التركى ، وهى أن كثيرا من سلاطين آل عثمان وأمرائهم نظموا الشعر ولهم دواوين تنطوى على الرقيق الأنيق ، إلى جانب بسط رعايتهم على أهل الأدب ، وإذا عرفنا أن عددهم يربو على العشرين أدركنا أثرهم فى مد الأدب بالخاص من المقومات . وأول هؤلاء السلطان مراد الثانى المتملك عام ١٤٢١ م والذى كان يدعو الشعراء إلى مجلسه يومين من أيام الأسبوع حيث يأخذون بأطراف الأسمار والأشعار بينهم وبين السلطان ، فيستحسن ويستهجن بقدرة على معرفة مواضع الإجادة والإساءة ، ويا طالما غمرهم بكرمه ، فخلت نفوسهم من هموم العيش ، وتأتى لهم أن يتفرغوا لحرفة الأدب بعد أن صلحت حالهم ونعم بالهم .

ومراد الثانى شاعر مجيد له رباعية مشهورة يقول فيها : (هاتها هاتها يا ساقى من شراب الامس ، آتنى مزهرى وأنطق القلب بالهمس ، إنى خليق بتلك المتعة مادمت حيا ، فلسوف أصبح فى التراب نسيًا منسيا !) .

والقدر الذى رواه الرواة من أشعار لا يدل على أنه كان من الزهاد والعباد ؛ فإن المعانى الحسية فيه تدور وتدور وتجعله متهالكا على طيبات الدنيا ! لا يطلب منها إلا زهرتها وبسمتها ، وهذا تطور فى الشعر التركى لا يخفى ، وهو أبعد ما يكون عن التصوف الذى رأينا الشعر التركى يستمد منه نشأته وكيانه ، وأن هذا السلطان يفرغ على شعره الواقعية بل يطبعه فى صراحة بطابع المحلية ، يقول : (رأيت البارحة جميلا عزيزا علىّ كروحى فى المنام ، فوجدت فى الجسد الهامد أثر الروح عند القيام ، ولقد والله لثمت شفتيك على حر شوق إليك ، يا طيب الروح والقلب ، رأيت الدواء للداء ، أيها الأنيس ، إن أدرنه بلد الحسان ، غير أنى رأيت فى رومة أكثر من مليح فتان ، يا مراد ، أنت مالك الآفاق ، ولكن مليك الحسن أسرك بغدائره ، فأصبحت من العشاق !) .

والكلام عن هذا السلطان مقرون بالكلام عن ولده محمد الفاتح فاتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، ومن عجب أنه مختلف فى شخصيته الإنسانية والعلمية فى صغره عنه فى كبره ، فقد كان متمرداً عتيًّا مستكبراً وهو صبى حدث لا رغبة له فى تحصيل علم ولا إعمال فكر ، فعجز مؤدبه عن تلقينه أصول الشرع وتحفيظه القرآن ، ولكن تولى أمره مؤدب آخر كان شديد الوطأة عليه فقرعه بعصاه حتى لان جانبه وسلس وانقاد ، وما أفضت إليه السلطنة حتى كان متضلعاً من أفانين العلم ، يحذق العربية والفارسية والعبرية واليونانية ، واشتهر بحبه للعلماء وإجزاله لهم فى

العطاء ، ووظف الأرزاق لثلاثين شاعراً ، وكان يرسل فى كل عام مالا إلى شاعر هندى وآخر فارسى ، كما اصطفى من وزرائه أربعة كلهم شعراء ، ومال كل الميل إلى الفرس لشغفه بأدبهم إلى أن كان يؤثرهم بأعلى المناصب مما أغضب الترك الذين ساءهم تفضيل الغرباء الدخلاء عليهم : قيل إن شاعراً تركياً أراد الزلفى إليه فادعى أنه فارسى فنال منه مبتغاه ونحن واجدون لميله إلى الفرس أثراً فى توجيه الأدب على أيامه .

ومحمد الفاتح شاعر صاحب ديوان ومن قوله : (أيها الساقى ، أدر علينا كأس المدام ؛ ففى يوم من الأيام سوف تخلو من البستان اليد إن حلّ الخريف خلت اليد من الربيع والروض المنيف . نفسى إلى الزهد والتقاة تميل ، ولكن حين أشاهد هذا الجميل تخلو من الاختيار اليد ، ولقد أصبحت تراباً قلبى أذراه ، وهو يقول آه ! ولا جرم من نسيم الصبا أن تخلو من الغبار اليد ، لا يغرنك أيها الجميل هذا البهاء ، وعليك أن تظهر الوفاء ، فما بقى الجمال لأحد ، وسوف تخلو منه اليد ، وعلى أن أحاول وأقاتل العداة من أجل الحبيب ، ومالم يصبح العدو للكلب جيفة خلت من الحبيب اليد) .

ومعظم ما طرق الشاعر من معان مألوف معروف فى الشعر الصوفى ، غير أن البيت الأخير تتميز به شخصية السلطان ، ويبدو فى مظهر المحارب الغالب والفارس المغوار الذى يثير إعجاب المرأة به وحبها له بنجدته وبطولته .

ولما كان الناس على دين ملوكهم كما يقال فقد مال الشعراء والأدباء فى عصر محمد الفاتح إلى الأخذ عن أدب الفرس ، وتجلت هذه الظاهرة فى تضمين لغتهم التركية بمالا يحصى لكثرة من الألفاظ الفارسية وما يتبعها من ألفاظ عربية حتى غلب العنصر الفارسى العربى على العنصر التركى لديهم ، وأصبحت الفارسية الدخيلة فى التركية أصيلة ، واندمجت فى متنها بحيث كادت تصبح جزءاً لا يتجزأ منها ، وأضحى هذا عرفاً أدبياً يسيغه الذوق ولا يسيغ سواه ، ورأى أهل الأدب من الأتراك فى ذلك وسما لكلامهم بميسم الفصاحة وتزيينا له بحلى البلاغة ، ونحن نتبين هذا المنحى بجلاء فى شعر أحمد باشا وزير محمد الفاتح وعلى الأخص فى قصيدة له يصف بها قصراً للسلطان ، وكأنما توخى أن يؤدى الكلام على هذا الوجه مجاملة لمولاه الذى اشتد ولوعه بالفرس وأدبهم ، وبغية أن يخلع على قصيدته مظهر التعظيم والتفخيم وهو يصف قصره وينثر كل ما فى جعبته من كنايات واستعارات ومبالغات ليخلعها على قصيدته حلة مبرقشة تليق بالسلطان .

وكان الشأن فى الشعر كالشأن فى النثر على حد سواء ، وعلى ذكر النثر نجد أن رائد النثر الفنى فى الأدب التركى من أهل هذا العصر وهو سنان باشا العالم الشاعر الكاتب ، إلا أن الكتابة غلبت عليه ، وبها استفاضت شهرته وعلت مكانته ، وقد ولاه الفاتح قضاء إستانبول ثم اتخذه نديماً ومعلماً ووزيراً ، غير أنه غضب عليه فى شىء فعزله وحبسه ، ولما شفع

له الشفعاء أطلق سبيله ، وألحقه بمنصب دون ما كان فيه بعيداً عن إستانبول ، وكان لهذا كله عميق الأثر فى نفس سنان باشا الذى اعتزل الناس وتصوف ، وله رسالة عنوانها (تضرعات) يستدل من عنوانها على موضوعها ؛ فسنان باشا يعبر فيها عن شعور المؤمن بربه ، ويصور التقوى عاطفة تموج بها الروح ؛ فهذا المؤمن فى تحنثه وتصوفه لا يملك لحبه ربّه كتماناً ، ذلك الحب الذى ملأ عليه رحاب نفسه فتدفق كلاماً وأنغاماً ، وكلامه السهل الممتنع الآخذ بعضه برقاب بعض بكيفية تجزم بأنه وحى الخاطر ؛ ولذلك كان شعراً منثوراً بكل ما تتسع له الكلمة من معنى ، وصاحبه كاتب يجرى على كلامه ما يجرى على كلام الشاعر من صفات وسمات ؛ فتضرعاته إنما هى من الأدب الدينى العالى الذى تغلب العاطفة فيه على العقل ؛ ولذلك عبر بنثر مسجوع يتميز بالجمل القصار والمعانى التى فى ظاهر ألفاظها ، وشأنه شأن الصوفية فى ذم الدنيا بمثل قوله :

(الدنيا عجوز شمطاء فى زى كاعب حسناء ، ودار خراب ، وإن بدت دار عمران لها من الوفاء والصفاء ما للنساء . يالها من هرة تأكل صغارها ، وكلب يعض صاحبه بعد أن يتلطف ويتملق ! إن وعدت نكثت عهدها ، وإن عاهدت فلا ذمة ولا إلّ لها) ، أما فى العشق الإلهى فيقول : (العشق جوهر ليس كمثله شىء ، ولا سبيل إلى تشبيهه لإصابة صفته ، العشق سر خفى لا يتوصل إلى تصويره بضرب الأمثال ، ونطق ألسن العشاق بكلامه على شفاههم محرم حرام) .

ولقد ترنم شعراء الترك بمثل هذه المعاني ، ولكننا لا نعرف من جرى قلمه بها ، وما أجمل أن يضرع إلى الله بمثل قوله : (يا عليا ليس لعلمه غاية ، وقادراً ليس لقدرته من نهاية ، أنت القديم وعن قدمك ترتد عقول المتقدمين عجزا وقصورا ، أنت الحكيم وحكماء الأوائل والأواخر لا يملكون شيئاً من حكمتك ، أيها السميع ولا آلة لسمعك ، والبصير ولا آفة لبصرك ، أنت الخالق ولا نهاية لخلقك ، وكل كائن يصيب من كرمك) !

وبفضل سنان باشا يكتمل الأدب التركي منظومه ومنثوره . فما وجد النثر الفني قبله ، بهذا الأسلوب الأدبي المنمق الذي يسمو به إلى روعة الفن :

ولنتجاوز قليلاً عهد محمد الفاتح فنذكر شخصيتين أدبيتين إنسانيتين أحق أن تكونا موضع دراسة لا في الأدب التركي وحده ، بل في تراث الإنسانية الأدبي ، لأن لهما من الصفات مالا نصادفه إلا في الندرة ، وهاتان الشخصيتان هما للأمير (جم) ابن السلطان محمد الفاتح وهو شاعر مغامر ، و (مهري خاتون) الشاعرة العاشقة .

وللأمير جم قصة مستطرفة مع أخيه بايزيد حين قام النزاع والصراع بينهما على العرش بعد وفاة أبيهما . فقد نشب القتال بينهما ودارت الدائرة على جم الذي لم يكن ليستيئس ويفشل عن حقه . فارتحل إلى مصر وحل ضيفاً على السلطان قايتباي . وفي مصر حن حنينه إلى بيت الله أملاً

فى أن يرضى عنه ربه ويشبع بالسلوان قلبه ، فحج إلى البيت ، وعاود أخاه بالقتال فى أنقرة ، ودارت عليه الدائرة ، غير أنه عول على السعى فى طلب العرش أو يهلك دونه ، فولى وجهه شطر الغرب ، ورأى أن يؤلب ولايات الغرب على أخيه ، ومضى إلى جزيرة رودس إلا أن السلطان بايزيد أغرى صاحب الجزيرة بمال جزيل لقاء أن يبقى ضيفه فى الأسر لديه ، كما طلب ملك المجر وملك ألمانيا تسليمه لهما ليكون بين يديهما وسيلتهما إلى مناوأة الدولة العثمانية ، غير أن صاحب رودس أوجس خيفة ، فرأى التخلص منه بإرساله إلى نيس فى جنوبى فرنسا .

وفى فرنسا نزل ضيفاً على صاحب قصر كانت له ابنة بارعة الحسن فشغفته حباً ، ورأى نفسه طريداً شريداً فى حله ومرتحله وقد ترك فى مصر الأهل والولد ومنى من رجاله بأقبح الغدر فغشى الأسى نفسه ، ونطق لحناً حزيناً فى شعره ، وبعد أعوام سبعة قضاها فى فرنسا أرسل إلى إيطاليا حيث سكن الفاتيكان ، وكان يقص على البابا قصته حتى تفيض عينه من الدمع ، إلا أن بايزيد اتفق مع البابا على تسليمه ، ولكن ملك فرنسا الذى أغار على إيطاليا أمر بإعادته إلى فرنسا وفيها كان آخر العهد به .

هذا مجمل القول فى خبر هذا الأمير الشاعر الذى تميز شعره بغنائية لا تصادف ما يشبهها فى شعر الترك القديم إلا قليلاً : ومثال ذلك قوله :

(السيل جار يدق صدره بالأحجار فتأمل ، الكون رحمنى من هول ما

أصابنى ، فتأمل ، وعلى رءوس الجبال تمر غمائم الأفلاك بعيونها البواكى ، وللبروق والرعود تلهب وشبوب وتأوه ونحيب ، فتأمل ، ومزع الفجر ثوبه مزعاً حسرة وجزعاً ، وجرى الدم واندفق عوضاً من الشفق فتأمل) .

هذا مثال من شعر له يصف فيه الطبيعة فلا يصف إلا نفسه المحزونة ، وذلك صنيع الشاعر الحق المتأثر بما حوله ، المعبر عنه بحيث يكون تعبيره مرآة مجلوة لقلبه ، فقد تعاورته المحن ودهمته الكوارث ، فلو لم تكن هذه الملامح للعبوس والأسى فى شعره ما كان أصيلاً فى شاعريته ولا صادقاً مع نفسه .

أما (مهرى خاتون) فشاعرة أضافت بديوانها صفحات عطرات إلى شعر الحب فى كل زمان ولسان ، وهى من مدينة (أماسيه) بالأناضول المعروفة ببغداد الترك ، لأنها تشبه بغداد العرب فى كونها حاضرة العلم والأدب ، كانت سمحة الملكة جيدة القريحة ، غير أن لها صفات تختص بها : فهى مرهفة الحس جامحة الهوى مغتربة الروح ، يهيم بها شوقها إلى حبيب يؤنس وحشتها ويرد غربتها ، وما ملكت لعاطفتها زماماً ، ولا تبالى قول القائلين ولا ملامة اللائمين ، وهى التى تغشى مجالس حاكم (أماسيه) لتدخل مع الداخلين فى حديثهم عن الشعر ، وتباريهم فى تذوقها للأدب ، فلقد عشقت من يُدعى مؤَيد زادة ، ومن يدعى إسكندر بك ، غير أن قلبها تحطم على صخرة من جفائهما وعدم

اكتراثهما ، فما بادلاها حباً بحب ولا رَقّا لها مما عانت فى الهوى ، وهى القائلة فى ذلك :

(ماذا عسيت أن أصنع ؟ فلا صبر لى برهة عن الحبيب ، ياله من مريد جهدت عبثاً أن أسكته وأكفه عن ألم الوجيب ! أجريت اسمه على لسانى إلا أنه تناسانى ، وطالما أحيط الإنسان بمن ليسوا من الخلان ، وبوصله وعدنى ، فبلوعتى عذبنى ، وما وعدنى أخلفنى ، ماله من عهد ولا إيمان ! قلت : يا طبيب الروح ، داونى ، فقد ثقلت علىّ علتى ! قال : قتل العاشق بلا ذنب دأبى وخصلتى ، ولو متنا يا مهرى لا نستطيع نزوعاً عن حب أهل الجمال ، لا حياة لنا من غير حبيب ، ولا ضير علينا من القيل والقال !) وتلك صراحة سافرة فى ذكر كوامن الأشواق وشعر حى هو صورة للحياة .

كما تنطق عن أنوثتها بمثل قولها : (كنت آمل أن تكون لى وفيًّا ، من كان يحسبك فى الجفاء عتيا . أنت الوردة الغضة فى روضة الجنان ، والشوكة والوردة بالتدانى جديرتان ، أنا لا أدعو عليك الله ، ولكن أسأله أن يجمعك بمن تهواه على أن يكون مثلك فى جفاه !) .

ولن يكون الشعر شعراً حقًّا إلا إذا كان صورة صادقة لنفس الشاعرة ، وهذا شرط يستوفى عند شاعرتنا التى فرضت ذكرها وتركت أثرها فى الأدب التركى ، بحيث يجب أن يذكر بها كما تذكر به ؛ لقد ردّت (مهرى) كل من طلب يدها وآثرت العكوف على نظم شعرها

الرقيق لتعبر للإنسانية عن تباريح القلب الكسير ، وتكشف عن سر الروح فى هيامها والجميل من أحلامها ، وقبرها مزار للعشاق يزورونه مترحمين ساكبين عليه دمعة رثاء ووفاء ليهبوا لها بعد موتها ما حُرِمته فى حياتها .

أما آخر من نختاره للحديث عنه من شعراء تلك الفترة فشاعران : أولهما السلطان (سليم) الأول فاتح مصر عام ١٥١٧ م ، والآخر مسيحى وكان من أهل اللهو والمجون ، وكلاهما قال شعراً يتميز عن شعر سواه من أهل زمانه .

فما نظم سليم إلا بالفارسية ، وله فيها ديوان يحوى المطرب المعجب ، ولم ينس حديثه عن نفسه حتى فيما طرق من معان تقليدية ، كما تغنى بانتصاره على ملك الفرس وسلطان مصر ! ولا مجال للحديث عن شعره الفارسى فى كتاب عن الأدب التركى ، ولكن نظمه بالفارسية وحدها دليل على اهتمام الترك بدراستها ونظرتهم إليها على أنها لغة الأدب العالى .

وأما (مسيحى) فنقف عند منظومتين له : أولاهما فى الربيع والأخرى فى وصف مدينة أدرنة وساكنيها من الغلمان ، ولمنظومته فى الربيع شهرة عند علماء التركيات من الأوربيين ، فقد ترجمت إلى اللاتينية والإيطالية والألمانية والإنجليزية ، وما كان الشاعر وصافاً للطبيعة ليس إلاّ ، بل داعيا إلى اغتنام المتعة فى دنيا إلى فناء ، وإلى كونه مشرق البيان عن مسلكه فى الحياة ومشربه ، وهو دوام نظره إلى الجانب الباسم

منها كما فى قوله : (الغمامة تسكب على الروضة الدر كل صبيحة ، ويحمل نسيم الفجر من المسك أطيب نفحة ، فلا تنس زينة الدنيا ولا تغفل عن متعتها ، اطرب واشرب فليس لأيام الربيع دوام !)

أما منظومته التى خص بها مدينة أدرنة ، فذكر فيها ستة وأربعين غلاماً بأسمائهم التى تدل على أنهم من أجناس وأديان شتى كما أن معظمهم من أبناء الطبقة الكادحة وصبية الحوانيت ، و (مسيحى) بذلك يصف البيئة بطابعها المحلى الخاص ؛ كما أنه يذكر الغلمان فى ميل ظاهر إلى الهزل والتبسط والفكاهة ؛ لأنه يولد معنى من اسم كل غلام ، كأن يقول فيمن اسمه خليل : إن السحر فى ذؤابته الثائرة أسعر النار من روضة مزهرة ، وفيمن يسمى يوسف : إنه للحسن فى مصر سلطان ، ومن رآه فى محلته قال : إن يوسف لن يسلم من الذئب وفتكته ؛ فهذا كلام ظاهر الدعابة قيل على سبيل الافتتان لا وصف الحقيقة ، وتلك أمارة على تطور الشعر التركى تبعاً لتطور الحياة بعد مرور قرنين على نشأته ، ولعل فى هذا القدر من خصائص أدب الترك فى تلك الفترة ما يقيم الدليل على أن من أنكرها لم يكن حجة فيما قال .

أما عصر سليمان القانونى فهو العصر الذهبى للأدب التركى القديم بإجماع من أهل العلم ، قيل : إن مائتى شاعر شُهد لهم بالعبقرية آن ذاك كما أظهر خمسون مؤلفاً براعتهم وقدرتهم ، وكان صاحب هذا العصر السلطان سليمان مشغوفاً بالأدب كل الشغف ، وهو شاعر له ديوان ينطوى

على أشعار جياد ، أقام للأدب سوقاً بدعوته الشعراء إلى مجالسه ليعارض شعرهم ، ويدلى فيه بالسديد من رأيه ، وظهرت فى الشعر فنون لا عهد للترك بها من قبل : كالنظم فى أحداث وقعت يشترك كثير من الشعراء فى وصفها والتعقيب عليها : مثال ذلك ما كان من منع شرب الخمر فى فترة من عهد سليمان الذى أمر رجاله بالأخذ على يد شاربيها وبائعيها ، واتفق أن أضرموا النار فى قارب يحمل خمراً ، فتداول الشعراء القول فى هذا ؛ كما قال بعضهم فى أمر السلطان بمنع شرب الخمر : (هدموا الحانة هدماً فكأنها قلب العاشق الولهان ، وقلبوا إبريق الراح على ذكرى الحبيب الخوان ، وغاب الشراب عن البصر ، فكأنه للحبيب ثغر ، وأخوف ما أخاف أن يحطم حاكم القضاء كأس السماء من أجل الصهباء !) فهذا تاريخ ولا ريب فى أجمل وأدق صورة .

وعلى ذكر التاريخ نقول : إن فنًّا أدبيًّا تاريخيًّا نشأ فى هذا الزمان وهو تدوين التاريخ نظماً ، فقد شغل عدد من الشعراء مناصب خاصة فى الدولة وعملهم هو تأريخ الدولة العثمانية عموماً ، أو عصر سليمان خصوصاً والتغنى بمناقبه ومآثره وذكر حروبه وما تحقق له فيها من نصر مبين ، وكان يعاون هؤلاء الشعراء جماعة من الخطاطين والرسامين لإخراج هذه التواريخ فى أبهى مظهر ، وبعد أن كانت شعراً من ألفها إلى يائها أصبحت شعراً يتخلله النثر على مر الأيام ، كما عرف نوع من التأليف لم يعرف من قبل وهو تدوين سير الشعراء مع إيراد أمثلة من

أشعارهم فى كتب يعرف الواحد منها «بتذكرة الشعراء» وكان مؤلفوها من الأدباء وبلغاء الكتاب ، فنثرها الفنى كثير البديع ، وأسلوبها لا يستغلق إلا على الراسخين فى العلم لجملها الطوال المحملة بالألفاظ الفارسية والعربية ، وهى من قبيل كتب التاريخ الأدبى ومصادر النثر الفنى.

ولننظر فى تذكرة لمن يسمى (لطيفى) ونقف عند قوله (فى زماننا هذا لا يُعرف شاعر من متشاعر فمن الناس من يقبل على نظم القريض ولا دراية له بالعروض ، وكثر بين هؤلاء من أحكموا تقليد غيرهم ، ومنهم من قرأ كتاباً من أدب الفرس فدخله الغرور بنفسه ، وتوهم أنه المبدع ، وربما لا ينظم إلا أبياتاً خمسة فيدعى أنه يضارع من شعراء الفرس من نظموا خمسة كتب فى القصص ، وكأى من مقتدر على مجرد النظم ولا شعور له أصلاً بالشعر! ظن أنه حسّان الزمانى !).

ونحن نفهم من ذلك غير ما يسبق إلى الفهم للوهلة الأولى ، ونرى فيه برهاناً قاطعاً على ولع أهل زمانه بالأدب ، وأنهم يميلون إلى الشعر كل الميل ، فهم لا يكتفون بالطرب لشعر المشاهير من المجيدين ، بل تدفعهم رغبتهم فى الشعر إلى نظمه جهد استطاعتهم ؛ كما يستخلص من تلك القولة : إن القوم كانوا يتوفرون على قراءة أدب الفرس معجبين بأدبائهم وشعرائهم ، ناظرين إليهم أمثلة تُحتذَى ، وبذلك نلمح وحدة الثقافة الإسلامية بين الترك والفرس والعرب ، ونعرف للترك فضلهم فى إحكام الربط بين عراها لديهم.

ولقد استبدت الرغبة بكثير من شعراء الترك فى معارضة شعراء الفرس الذين نظموا القصص مثل قصة ليلى والمجنون التى طوعوها للرمز إلى معان صوفية ، ولكنّ شاعرا هو يحيى بك ، المتوفى عام ١٥٨٢ م ينكف عن أن يكون مقلداً ، ويشبه مقلدهم بآكل الحلوى التى يتصدق بها أهل الميت ! وفى قصة منظومة له يقول : (ما ترجمت كلاماً لغيرى ، وما مزجت بقول الغرباء شعرى ، وما كان لسانى للعجم ترجمانهم ، ولست بآكل حلوى موتاهم !) .

وليحيى بك شهرة بمرثية تعرف بالمرثية المصطفوية نسبة إلى الأمير مصطفى بن سليمان القانونى الذى أمر أبوه بقتله فى غير ذنب بإيعاز من زوجته التى شاءت أن يخلو العرش لولدها ، وكان لمقتله عميق أسى فى النفوس ، فسُمى الشهيد ، كما كان محبوباً أديباً شاعراً ، ومن تلك المرثية قوله :

(لقد أغرق فى سيل البلاء ، وتناثرت منه الأشلاء ، ليت عينى لم تشاهد ما جرى ، ومن أسف أنها لا ترتضى ما ترى ، هو بدر الكمال وبحر العلم أتى عليه الفناء وأتلفه طالع الشؤم ، جريرته ما عُينت وجرمه غير معلوم ، ليهنه أنه سعيد شهيد وملك مظلوم ، أجزل الله له الرحمات ، بقدر ما ملأ عينى من العبرات !)

ومن أكثر الأدباء إنتاجاً فى عهد سليمان شاعر كاتب يسمى «لامعى» ، وقد ترجم شعراً قصصياً عن الفارسية إلى الشعر التركى ،

وفي شعره ميل ظاهر إلى الصنعة ، وعرْضٌ على صور شعرية صارخة الألوان ذهاباً منه إلى التأنق في أداء العبارة ، ومن المقطوع به أنه متعدد الجوانب متقلب في شتى الفنون ؛ وهذا مثال من وصفه للطبيعة يلوح فيه رسَّاماً يسرف في استخدام الألوان :

(أقبل أيها المستهام ؛ فقد آن أوان الغرام واعتدلت الجواء ، فاخرج إلى الخلاء ، وانتقلت الشمس إلى الميزان ، ففتحت كنز الذهب زليخا الزمان ، وأصبح للموج لون الزعفران ، واشتعلت الأشجار بلون العقيان ، وتساقطت على الأرض أوراق من ذهب ، فامتلأت الغدران بسمك من ذهب ، وكأنما أصبحت كل دوحة شعلة من نار ، فمن الجو للشرر انتثار ، وتزين ورقة الكرم بماء الذهب الجبين ، ويتخذ الغدير له خلخالا من اللجين !) .

وله من النثر الفني مناظرة الربيع والشتاء التي لم يقصد بها إلا الافتنان في الإنشاء ، وتعد مثالاً رائعاً لهذا النمط من النثر الذي يتضمن أبياتاً من الشعر .

ومن شعراء عصر سليمان القانوني شاعر يسمى « ذاتي » كان يستدر الرزق من حرفة التنجيم في دكان له إلى جوار مسجد بايزيد بإستانبول يلتقي فيه حوله شداة الأدب ، ليعرضوا عليه ما نظموا من أشعار يتناولها لهم بالتصحيح . ومن عجيب أمره أنه كان ينسب إلى نفسه طائفة من أشعارهم ، وفي رده على القائلين له في ذلك : إنه ضمّن شعرهم

ديوانه ، فضمن لهم شهرة كشهرته بعد أن كانوا مغمورين منسيين ! وله قصة منظومة ينهج فيها نهج الصوفية إذا جنحوا إلى الرمز والإيماء لتفسير مادق من أحكام التصوف وأصوله .

والمجال بعد ذلك يتسع لذكر (فضولى) البغدادى الذى يعد بحق عبقرى الأدب الإسلامى بمفهومه الواسع . لأنه نظم ونثر وألف بلغات الأدب الإسلامى الثلاث ، وهى التركية والفارسية والعربية . وعندنا أنه أمير الشعر التركى القديم ولا جدال ، وشعره ونثره فى الفارسية والعربية والتركية أجود ما كان فى عصره وبيئته ، لقد عاش فى بغداد فنسب إليها ، ولم ينتسب إلى الأدب التركى إلا بعد فتح سليمان القانونى للعراق . وقيل : إن سليمان القانونى لم يحقق مجداً حربياً بهذا الفتح قدر ما حقق مجداً أدبياً بعد أن أصبح هذا الشاعر فى عداد شعراء الدولة العثمانية : لقد وصف مادار حوله فى بيئته العراقية ، وبذلك أرخ العراق فى فترة أغفل المؤرخون تفصيل القول عنها ، وعرف بشاعر القلب وسلطان الألم مما جعل له موضعاً بين شعراء الإنسانية ، عاش مجهول القدر مبخوس الحق ضيق ذات اليد ، يعانى ما يعانى من كيد حاسديه ، فقضى العمر فى هم وبرحاء ، وفى ذلك يقول متوجعاً : (إذا ما نظمت اليواقيت الغوالى فى ألف سمط ، وغرست جميع الأزاهر فى ألف روضة - فلست بواجد من يعيرها نظرة ؛ لأن قومى يسمون الزهر شوكاً والياقوت جلمداً ! وإذا جمعنى سبيل بالزمان تخالفنا وتنافرنا ؛ فما أنا من أهل هذا الزمان ولا هم

منى ، إن الدهر يريد الغض من شأن هذا الشعر ويحط من قدره ، وله علىّ أن أروج سوقه من كساد وأصلحه من فساد ! إنما أريد تعمير الخراب ، ولى إن شاء الله الغلاب !) .

وكان الحزن طابعاً مميزاً لشعره ، بحيث طاب له أن يجسده فيه على أنه يسمو به ويهب له جمالاً معجباً ، فارتضى هذا له مذهباً وصرح قائلاً : (لا تحسبن الرواء والبهاء سمة لكلام من عدم الآلام ، فخلا منها قلبه ولم تكتو بها كبده ، ولن تتأتى البدائع والروائع من دِعة العيش وسكينة النفس ، أما إذا بدر القول من لوعة وصدر عن محنة فإنه الخالب للب الآخذ بالقلب !) .

هذا مذهب (فضولى) فى شعره ، ونحن نعرف له مثيلاً عند الرومانسيين والغزليِّين من الشعراء الأتراك والأوربيين ، ويسترعينا إليه أن ينسب إلى شاعر تركى من أهل العراق فى القرن السادس عشر دعا إليه وحث عليه على حين ظن كثير من الدارسين أن شعر الترك القديم كان مجرد اتباع وقول معاد ، وأن شعراء الترك القدامى عدموا كل قدرة على أن يستمسكوا برأى أو يسلكوا مسلكاً خاصًّا بين المسالك ! لقد مدح شاعرنا السلطان سليمان القانونى بقصيدة عصماء حين دخل بغداد فاتحاً ، فأمر له بتسعة دراهم تجرى عليه فى كل شهر من الأوقاف ، ولما اطلع موظفو الأوقاف فى بغداد على هذا الأمر السلطانى أبوا أن يصرفوا له شيئاً ، فكتب رسالة إلى القائم على تدبير أموال الدولة العثمانية فى

إستانبول شاكياً متظلماً ، غير أنه لم ينصف وكانت شكواه صرخة فى واد ونفخة فى رماد ، غير أنه نفح الأدب التركى برسالته تلك التى تعد أروع مثال للنثر الفنى ، وكأنما كان على الصواب الأصوب حين قال : إن الحزن معين للشاعر على الإبداع ، وإليك هذا المثال من شعره :

(أيتها الشمعة ، غلبنى البكاء لهجر الحبيب فى هذه الليلة ، فجالسينى وباكينى ، وليكن بكاءً تتحرق الروح منه فى هذه الليلة ، ورغبتى فى الاحتراق من فرعى إلى قدمى على ذكرى محياه ، فامض يا دمعى المدرار ، وحل بين الماء وما لدى من نار ، فى هذه الليلة أرجأت إلى الغد قتلى ، وأخوف ما أخاف أن يبطئ السحر فى المجىء علىّ ، والانتظار ينتزع منى الروح فى هذه الليلة ، وكتمت عن الناس ذهابى إلى محلته حسبة لله ، فلا تهتك سترى يا أنيسى المنبعث عنى فى هذه الليلة !)

ونصل بالكلام إلى غايته عن الشعراء الذين اتصلت الأسباب بينهم وبين سليمان القانونى بذكر الشاعر (باقى) الذى ينادى به كثير من الباحثين سلطاناً للشعر فى زمانه لجزالة لفظه ولأنه أول من أدخل لهجة إستانبول على أدب الترك ، أما نحن فنتمسك بيقيننا مبايعين (فضولى) وحده بإمارة الشعر التركى القديم ، وهو مختلف عن الشاعر باقى فى أنه الذى لم يكن من عباقرة الفكر والروح ، ووجه عنايته أكثر ما وجهها إلى الشكل والصورة إلا أن شعره لم يتقلب فى كل الفنون ، وكثير الشاعر (فضولى) الجيد خير من قليل (باقى) الذى لم يبلغ من الجودة غايتها ، كما أنه منفرد

عن شعراء عصره بعدم النظم فى التوحيد ومدح النبى ﷺ ومناجاة الذات وما يتصل بالمعانى الصوفية ونورد له هنا مثالا من مرثيته فى السلطان سليمان المتوفى عام ١٥٦٦ م : قال أحد علماء الغرب لو أن كل ما نظم (باقى) فى مستوى هذه المرثية لكان من أعظم شعراء الدنيا ؛ وعندنا أن هذا حكم لا يخلو من مبالغة ، ونورد أحسن ما فيها وهو ما يستهله بها وإن كان تقليديا ولا ريب :

(يا من تنشد الصيت البعيد وتطلب المجد التليد ، فأصبحت من حرصك فى القيود ، إلام بزخرف الدنيا تعلقك ؟ حتام على متاعها تهالكك ؟ ألا فاذكر يوماً ينتهى فيه ربيع العمر ويجب أن يكون كورقة الخريف جبين الزهر ، وإذا ما كنت كسور الكأس يلتقى به فى الرغام ، ورمى الدهر بحجر ما فى يدك من جام – فإنما الإنسان من قلبه كالمرآة الصافية ، ومادمت إنساناً فأنى تحمل فى صدرك حقد النمور الضارية ؟) .

ونعود إلى النثر الفنى ، إلا أننا لا نواجهه فى كتاب أدب كما واجهناه من قبل فى كتاب التضرعات لسنان باشا وكتب تراجم الشعراء ومناظرة الربيع والشتاء للأمعى ، بل لنجده فى كتاب من كتب التاريخ بعنوان (تاج التواريخ) لسعد الدين المتوفى عام ١٥٩٩ م . والمعروف بخوجة سعد الدين أى سعد الدين المدرس ؛ لأنه كان مؤدبًا للسلطان مراد الثالث وهو أمير .

والكتاب ينتظم فصولاً عن سلاطين آل عثمان كما تحتوى خاتمته

تراجم لعلماء وشعراء عرفهم المؤلف وعايشهم مما يخلع على الكتاب صفة أدبية فى موضوعه ، بالإضافة إلى هذه الصفة فى أسلوبه ، وهو أول كتّاب الوقائع الرسميين ، كما أنه صنيعة القصر السلطانى ، وهذا ما جعله يقر فى كتابه بعجزه عن التعبير عن الرأى الحر فيما يقول وهو يحبس عنايته على تزويق عبارته واستعاراته بالتمكن من ناصية اللغة ، والقدرة على حسن التحبير والترسل ؛ كما أنه يعرض الحقيقة التاريخية عرضاً أدبياً ويتأكد ذلك من وصفه فتح الترك إستانبول :

(وضع الترك مدافعهم فى مواضعها ، وبعضها على هيئة الثعابين وللأخرى رءوس التنانين ، وتحصنوا فانعصموا ، وقام الإنكشارية بما وكل إليهم القيام به ، فأطلقوا على البروج والحصون مدافع تدقها فتدكها ، وتتابعت الضربات ، فتصدع البنيان ، وتخرمت الجدران كأنها قلب عاشق ولهان ! وارتفع الدخان فكفت العين عن الإبصار ، ووقب الليل بعد أن انمحت آية النهار ، وأصبح وجه الدنيا كحظ هؤلاء الكفار ، وكأنما السهام رسل تنطلق من قسيها لتقول فى آذان العداة المبهوتين : (أينما تكونوا يدرككم الموت !) وامتلأت ساحة الوغى من دماء الغزاة وأشلائهم بحمر الأزهار ، ولوجه الأرض احمرار !) .

وكان فى الإمكان أن يسوق هذا الخبر الذى تغنى فيه الإشارة عن العبارة مساقاً مباشراً من غير التواء ، إلا أنه آثر أن يحاول البلاغة ويتأنق فى الإنشاء .

ثم نمضى مع الزمان قدما فى تمثلنا للأدب التركى حتى نصف القرن السابع عشر ، ونذكر شاعراً يقال له (نفعى) كان مداحاً وصافاً للخيل بخاصة حتى قيل : إنه أعظم من قصّد القصائد من شعراء الترك ، غير أن شهرته استفاضت بالهجاء ؛ فهو أهجى شعراء الترك ، وهو عندهم كالحطيئة عند العرب . ومن أعجب شىء أنه كان يسرف فى هجو من سبق له أن مدحه ، ولم يفلت من خبث لسانه أعظم العظماء فى عصره ، وفى رأى أن معظم هجائه كان فيمن يستحقونه من أهل الحل والعقد الذين ساءت أعمالهم وأثاروا كل السخط عليهم ، وكانت فيه جرأة على الهزل والدعابة ، وقد هازل شيخ الإسلام شعراً ، قال الشيخ (أين الشعراء كنفعى الشاعر ؟ إن شعره المعلقات السبع وإن امرأ القيس نفسه كافر) . ورد (نفعى) بقوله : (قال المفتى : إن (نفعى) كافر ، وإذا قلت : إنه من المسلمين فكلانا يوم القيامة من الكاذبين !) .

ونستدل من هذا على حقيقتين : إحداهما أن هذا الشاعر كان مرموق المنزلة بين القوم تنعقد الألفة بينه وبين شيخ الإسلام وهو من هو فى علو مكانته ، والأخرى أن من مال إلى الهجاء مال إلى التهكم وهو هجو فى صورة هزل : قيل : (إن السلطان أنفذ إليه ذات يوم رقعة كُتب فيها شىء لم يعجبه فنظر إلى الرقعة باستخفاف وكان حامل الرقعة إليه خصياً أسود وبين يديه صحيفة يطالعها ، فاتفق أن سقطت نقطة من المداد على الصحيفة فبالغ (نفعى) فى الضحك ، ولما سأله الأسود : ما يضحكه ؟

قال : إن عرق مولانا المبارك سقط على صحيفته !) .

وأهاجى (نفعى) فى كتاب بعنوان (سهام القضاء) : ومن مستظرف ما يروى أن السلطان (مراد) الرابع كان فى جوسقة ذات يوم مكبًّا على صحيفة تتضمن شعراً لنفعى فى الهجاء ، فسقطت على مجلسه صاعقة رهيبة أصابت وجوه بعض من فى المجلس ، وانخلع قلب السلطان رعباً ، ومزق الصحيفة وأغلظ اللائمة على (نفعى) ، كما تاب واستغفر وتصدق بمال جزيل ! وفى ذلك قال أحد الظرفاء : (هبطت من السماء نظائر لسهام القضاء ، فوجد (نفعى) لخبث لسانه من الله البلاء !) .

وقد استدعاه السلطان واستتابه من الهجو ، فأغلظ الأيمان على التوبة ، غير أن طبعه غلب عليه فهجا الصدر الأعظم ، مما أغضب السلطان عليه فأمر بقتله عام ١٦٣٢ م ، وسيق إلى القتل فى مخزن للأخشاب وقال له الجلاد متهكماً : (سر بنا يا (نفعى) إلى الغابة لتبرى من خشبها سهاماً لك !) فرد (نفعى) بقوله : (اخسأ أيها الغبى الرقيع ! أنجز عملك ولا تبسط فىّ لسانك !) .

وقيل : إن السلطان (مراد) الرابع كان شاعراً ، وكان يحسد (نفعى) على شاعريته ، فأوعز إليه أن يهجو الصدر الأعظم متخذاً من ذلك ذريعة للخلاص منه .

ثم نذكر شاعرين تصديا لوصف بيئتهما بكيفية أضفت على شعرهما

لونا خاصًا وجعلته وصفًا دقيقًا للمجتمع التركى الإسلامى بأبرز ما فيه من تقاليد جدير بها أن تكون موضع نظر من يدرسون ما يتعلق بالجماعة وتاريخها وروحها وعقليتها :

أما أولها فهو الشاعر (ثابت) الذى عاش فى أوائل القرن الثامن عشر ، ومدح الصدر الأعظم بقصيدة (رمضانية) ، مهد فيها للمدح بذكر رمضان ووصف لياليه فى إستانبول وما يتصل بذلك من وصف كل ما دار حوله من مظاهر الحياة فى هذا الشهر ، وهو وصاف جزل القول وميال إلى الهزل والفكاهة خفيف الظل ، وله فضل السبق إلى النظم فى هذا الفن الشعرى الذى عرفت قصائده بالرمضانيات ، ونهج نهجه فيه بعد كثير من الشعراء مما جعل الرمضانية من خصائص الشعر التركى .

أما الشاعر الآخر فهو (عزيزى) الذى نظم منظومة فى فتيات إستانبول على نقيض ما جرت به عادة الشعراء من أهل عصره الذين كانوا يذمون النساء فى شعرهم ، وتلك جرأة من (عزيزى) فى خروجه على العرف الأدبى عند معاصريه ، كما أن منظومته فى فتيات إستانبول تعد معارضة لمنظومة للشاعر (مسيحى) فى غلمان مدينة أدرنة ، وهو يذكرهن بأسمائهن أو بنسبهن إلى آبائهن من أصحاب الحرف أو بصفاتهن المميزة ، والأسماء للمسلمات واليونانيات والأرمينيات واليهوديات فكأن منظومة (عزيزى) صورة ناطقة لمجتمع المرأة فى إستانبول على عهده .

وبعد هذا المطاف نوافى عصراً يعرف فى تاريخ الترك بعصر الزهر ، وهو عصر السلطان أحمد الثالث الذى أفضت إليه السلطنة فى أوائل القرن الثامن عشر ، وعُرف عصره بعصر الزهر ، لأن القوم أعجبوا بنوع من الزنبق ، فاقتنوا النادر من بذوره ، وغرسوا العجيب من شجيراته ، وتنافس المتنافسون من أهل الثراء فى جلب أنواعه من هولندا باذلين فى شرائه أغلى ثمن ، فراجت تجارته ، وبالغ اليهود من التجار فى رفع أسعاره حتى وكل السلطان بهم من يراقبهم للحد من جشعهم ، وافتن الشعراء فى وصفه ، وكانت إستانبول بما وسعت أشبه شىء بروضة مترامية الأرجاء له .

وقد انصرف أحمد الثالث عن الحروب وآثر أن يسعد شعبه فى ظل السلام ، وأن يوفر له أسباب النعيم ليتقلب فى أعطافه ، فابتنى القصور ، وأقام المتنزهات ورفع المآذن والقباب وجلب كل مظاهر الترف ، وكان بطبعه شاعراً مولعاً بالموسيقى دمث الخلق لين الجانب ؛ كما أمر شعراء الفصحى بنظم الأغانى للشعب ، ليترنم ببهجة الحياة ويضاحكها فى الشعر والنغم .

وشاعر هذا العصر يسمى بـ (نديم) ، وهو خير من يعبر عنه ، ويصوره بشعره المشرق الباسم المتجافى عن روح التصوف العبوس القاتم ، وهذا مثال من أغنية له يدعو فيها صاحبته إلى ركوب البحر فى نزهة إلى قصر السلطان فى مكان نزه فى إستانبول يعرف بسعد آباد قال :

(تعالىْ نبهج ذلك القلب المحزون ، تعالىْ يا سروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد آباد ، ها هى ذى القوارب بمجاذيفها الكثيرة على أهبة حَمْلنا . لنضحكْ ونلعب ، لِنَنَلْ من هذه الدنيا نصيبنا ، لنشربْ ماء تسنيم من عين تفجرت لنا ، ولنشاهد ماء الحياة يمجه التنين ، تعالىْ يا سروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد آباد ، استأذنى أمك فى الخروج ، قولى : إنك خارجة لأداء صلاة الجمعة ، سنتحين غفلة الدهر عنا يا حبيبتى ، إنه دهر خئون ، سنمضى نحو فرضة البحر فى طريق لا ترانا فيه العيون ، تعالى يا سروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد آباد !) .

وامتد الزمان بهذا الأدب التركى القديم بما يتجاوز مائة وخمسين عاماً من بعد ، وظهر فيه من الشعراء والشواعر مَن جدد أو قلد ، إلا أن وقفتنا حتى عند أصحاب الطرائف من هؤلاء لا تكاد تضيف جديداً إلى ماعرفنا من أخص سمات هذا الأدب ، تلك السمات التى أبنّا أهمها وأظهرها فى نظرة أعجل بلمحة دالة وإشارة لامحة .

الأدب الحديث

من حيث كان الأدب تعبيراً عن معانى الحياة - كان الأدب التركى الحديث مغايراً للأدب التركى القديم فى كثير من خصائصه . وما ذاك إلا لأن حياة الترك المحدثين باينت حياة الترك القدماء فى جوهرها ومظهرها ؛ فقد لحق التطور بحياة الترك الثقافية والسياسية شيئاً فشيئاً منذ عهد السلطان سليم الثالث الذى حكم بين عام ١٧٨٩ وعام ١٨٠٧ ؛ لأنه كان تقدمياً منطلق الفكر إلى قيم ومثل لا ضير من الأخذ بها مادامت محققة للنفع مفضية بشعبه إلى حياة أفضل . ورأى من الخير أن يأخذ الترك بشىء من مظاهر الحضارة الغربية بشرط أن تتفق مع عقائدهم والمتوارث من تقاليدهم ، واتصلت الأسباب بين تركيا وأوربا ، وأقام الترك مؤسسات علمية وعسكرية على غرار ما عند الأوربيين ، وكان لذلك أثره فى ظهور اتجاهات فكرية وتربوية جديدة ، وتضمنت مناهج التعليم علوماً حديثة لم يكن للمتعلمين عهد بها من قبل ، ومست الحاجة إلى وضع ألفاظ تركية خاصة بها ، فاندرج فى متنها مالم يكن فيه . وترجمت عن الفرنسية كتب علمية .

وحقيق بالذكر أن المتعلمين أيقنوا بأهمية اللغات على أنها السبيل إلى

تحصيل علم الأوربيين ، والاتصال بفكرهم ، فكأن حركة التجديد تلك إنما استمدت كيانها من الرغبة فى تلك العلوم التجريبية التطبيقية ، إلا أن الشأن لم يقف عند هذا الحد ، بل اندمجت فى تلك الحركة العلمية بخاصة عوامل سياسية واجتماعية جعلت لتلك الحركة اتجاهاً أدبياً عاماً هو مظهرها الأهم الأوضح .

ونلتفت إلى ذلك أول ما نلتفت فى عهد السلطان محمود الثانى الذى تملك بين عام ١٨٠٨ ، وعام ١٨٣٩ م ، فقد كان رائد إصلاح وداعية تقدم بمعنى الكلمة ، قضى على الانكشارية وهم فرقة من الجند لما استشرى من فسادها وقوى من تسلطها ، واستقدم للجيش المدربين الفرنسيين الذين دخلوا عليه بالمتطور المتقدم من نظمهم ، واتخذ الزى الأوربى ، وأقام الحفلات على مثال ما يقيم الأوربيون ، وأمر بإصدار جريدة بالتركية والفرنسية .

وخلفه ولده عبد المجيد الذى منح بلاده مجموعة من المراسيم الإصلاحية تعرف بالتنظيمات عام ١٨٥٦ ، ومن أهم ما تضمنته أن رعايا الدولة من مسلمين وغير مسلمين أمام القانون سواء ، ولا يجوز سجن أحد إلا بعد محاكمة قانونية ، وكان هذا تطوراً لما يحيط بالترك من مظاهر حياتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية ، ونخص الثقافة بالذكر فنقول .

إن جمهرة المثقفين درسوا الفرنسية ، فاطلعوا على عالم جديد للفكر

والروح . ومما أعان على نشر الفرنسية بين طبقات الشعب قدوم جالية فرنسية كبيرة فى عهد عبد المجيد واتخاذها فى إستانبول مقاماً ، ومن هؤلاء الفرنسيين من دخلوا فى دين الله ، وبذلك شاعت لغتهم وذاعت ، وهذا الذى ذكرناه كان من توفر المثقفين قبل هذا العهد على دراسة الفرنسية متخذين ذلك وسيلتهم إلى معرفة مالا يعرفه إلا الراسخون فى العلم ، ونظروا فى كتب الأدب الفرنسى وكتب السياسة والتاريخ ، فتأثروا بالفكر الحر والدعوة إلى المساواة والمؤاخاة ، فرأوا أن ينادوا بهذا عندهم ويدعو إليه بينهم ، فترددت فى الأدب أصداء لتلك الأفكار والمثل كما تأثر الأدباء بما قرءوا من أدب الفرنسيين ؛ ولا ريب فاتجهوا إليه يقتبسون منه ، كما كان شأن من سبقوهم فى اقتباسهم من أدب الفرس . ولكن لم يكن هذا التجديد طفرة بل بعد تمهيد .

ولنا أن ننسب الريادة إلى عاكف باشا المتوفى عام ١٨٤٨ م بالإسكندرية فى طريق العودة من الحج : كان عاكف باشا أول وزير للخارجية ، وإن سعى به إلى السلطان من أضمر له الحقد والحسد حتى قيل عنه : إنه قليل الصلاحية للقيام بأعباء منصبه لرجعية أفكاره المتعارضة مع التجديد الذى يعد أهم مقوم للنهضة التركية ! ولكننا نلمح البادرة الأولى للتجديد فى الأدب التركى لديه فى مرثية بكى بها حفيدته ؛ فهذه المرثية تنفرد بطابع ذاتى خاص يعد إرهاصاً للتجديد فى الشعر ، وفاتحة عصر من عصوره ، لأن الشاعر أدار فيها كلامه فى معنى

واحد لم يتجاوزه إلى سواه ، وتعبيره عن جزعه الذى استبد به على موت حفيدته ، وما جرى على مألوف الشعراء قبله من التمهيد بكلام طويل فى ذم الدنيا والترغيب عنها ، ولا قال شيئاً فى الحكمة والموعظة ، ولا جنح إلى تلك المبالغات التقليدية فى التعبير عن الحزن ، فما استبكى الحمام ولا الغمام ، ولا شبهها بزهرة ولا درة ؛ مما يؤكد التكلف والتعسف ، بل كان صادقاً مع نفسه فى وصف ماغشيها من أسى فقال :

(بنيتى الجميلة ، لا نسيان لك على مر الأيام والأعوام ، جزّعتنى المرّ من فراقك ! كيف أنسى معسول كلامك ؟ تعز على اليوم قبلة من بدنك ، ليت شعرى ! كيف تغير فى قبرك ؟ وإذا ذكرت ثغرك بوردة البستان وددت أن تحرق أنفاسى الورد والريحان ! كيف أصبح جسمك الفضى ؟ وهل سال الحاجب الأسود على الجبين الوردى ، وتفرق فى التراب شعرك الذهبى ، وانتشر ماكنت أشم وألثم من سنبل مسكى ؟) .

ويذكر بعده أدهم برتو باشا وكلاهما كان وزيراً ، كما نظم فى الأغراض التقليدية إلى جانب نظمه فى الجديد من الأغراض ، ومن ثم يتبين لنا أن الشعراء المجددين لم ينصرفوا تماماً عن القديم إلى الجديد ، بل التقى هذا وذاك فى نتاجهم الأدبى ، وما أشبه هذا العصر الحديث فى مطلعه بمطلع الفجر الذى نلمح فيه ظلام الليل مختلطاً بنور النهار .

وديوان هذا الشاعر يجرى فى أغراض القدماء ، إلا أنه يحوى منظومة ترجمها عن الفرنسية لفيكتور هوجو ، عنوانها : (طفل نائم) ، وفيها

يخالف أصول العروض التركى ، فكانت هذه هى المحاولة الأولى من هذا القبيل ، وبذلك أدخل على شعر الترك نمطاً عروضياً للشعر الفرنسى ، بالإضافة إلى ما اطّلع قومه عليه من معان لم تطرق فى الشعر الإسلامى كقوله :

(طفل من سلالة الملائكة ، حديث عهد بالولاد ، على مهد من الإعزاز ألا يستغرق فى نومه المعتاد ! له من حِضن أمه مهد لراحته ، فهو فى راحة من عناء هذا العالم ومحنته ، لا خبر لهديه عما جرى ، ينظر إلى العالم العلوى لا هذا العالم ، إذا راح فى الكرى تهدئه أمه بنغمات مطربات ، وكأنها أنهار لها خرير الموجات ، كل ترجيع فيها بماء يفور ويمور ، وقد أجل أبوه هذا المللك كل الإجلال ، وأخته قرينة اليمن والإقبال ، أما أمه فيمتد عليه منها جناحان ، كل ريشة منهما لأغنية ألحان !) .

فمثل هذه المعانى ليست من معروف الترك ولا مألوفهم ، وربما لا تسوغ فى ذوقهم ، إلا أنها جديد عرفوه وإلى مالديهم من ذخر أضافوه ، كما ترجم عن الفرنسية منظومة أخرى لروسو عنوانها (بقاء الروح) ، وفيها يتأمل الشاعر مشكلة الفناء والبقاء ، ولكن لا على الوجه الذى تأملها عليه الصوفية ، بل أعمل فيها تفكيره وغمرها بوجدانه ، فكانت الحياة عنده حُلْم ، وما خلق الناس إلا للمسات وهم يمضون بجهالتهم وغفلتهم إلى قاع لجة تطويهم طياً ، بعد أن تعذبوا بحسرتهم فى

دنيا بالبلايا والرزايا تداولتهم ! ثم يتساءل الشاعر عن سر الوجود والعدم .

وما كان أدهم برتو باشا شاعراً ليس إلا ؛ ولذا كان صنيعه كرائد للتجديد أوسع نطاقاً من صنيع عاكف باشا ، فقد ألف كتاباً انبرى فيه لتفنيد رأى الغربيين فى تعدد الزوجات ، كما ترجم كتاباً فى تاريخ الصليبيين ، فكأنه بذلك أطلع قومه على مالم يكن لهم به علم ، وأوقفهم على رأى الأوربيين فى الخاص من شئون المسلمين .

وبعد هذين الوزيرين الرائدين يتسع المقام لذكر شيخ المجددين وهو (شناسى أفندى) وهو مختلف عنهما فى أنه لم يكن من أهل المناصب ، وإنما أدركته حرفة الأدب ، فانصرف إليها لا يشغله عنها شاغل ، فوجد من الفراغ والجهد ما مكنه من أن ينجز ما يستحق عليه منا أن نسميه شيخ المجددين ؛ فقد عقد العزم على تأسيس مدرسة جديدة فى الأدب كثر أتباعها ، وبذلك أصبح للأدب الحديث كيان . وإن التأمل ليسترعينا إلى الوراء لنذكر أن الشأن فى هذا الأدب الحديث شبيه بالشأن فى الأدب القديم : بدأ بطور النشأة محاولة محدودة النطاق فى ملابسات دعت إليه وبعثت عليه ، ثم اكتمل فى سمات خصته وميزته . فدرس (شناسى) الفرنسية على فرنسى من هؤلاء الفرنسيين الذين أسلموا ، فراوده حلم جميل هو الرحيل إلى فرنسا طلباً للعلم ، وشاء الله أن يطوف خبره بسمع السلطان ، فيأمر بإيفاده إلى فرنسا ليعود منها بما يعود بالخير

على وطنه من علم وتجربة ، وبعد أعوام عاد مشرق الأمل عاقداً أكيد العزم على أن يكون مبشراً بعهد جديد يموج بأفكار لم تخطر ببال قومه من قبل ، ورأى من الخير أن يشتغل بالصحافة على أنها الوسيلة المثلى إلى نشر الرأى بحيث ينتهى إلى علم الكثير الأكبر ، فأصدر جريدة (تصوير أفكار) ، وأجرى قلمه فيها بكل جديد من المعرفة ، فما استثنى أدباً ولا علماً ولا فناً ولا اجتماعاً ، وكان هذا مما وقع أحسن موقع فى نفس السلطان فوصله بخمسمائة جنيه إلا أن نفس شناسى عفت عن هذا المال ، فرده قائلاً : إن حاجته لا تمس إلى شراء شىء به ! وإن التأمل فى هذا ليسفر عن أن الرجل مخلص القلب صادق العزم فى أن يغير ما بقومه ويهديهم إلى سبيل الخير والفلاح ليلحقوا بركب الحضارة بعد أن تخلفوا عنه طويلاً .

وأسلوبه فى الكتابة من السهل الممتنع ، ومعنى كلامه فى ظاهر لفظه ، وعبارته مستقيمة فى مستوى كل فهم ، ولا عناية له بالصنعة ، وهذا منه تطوير للنثر التركى الذى عرفناه فى سالف العصور مزدحماً بالبديع لا يفهمه إلا قلة من خواص المثقفين ؛ كما أنه أول من أدخل على التركية ألفاظاً لم تجر من قبل على لسان ولا قلم : مثل قانون ووطن وحرية ودولة ؛ فما كان لهذه الألفاظ من مفهوم عند الترك إلا فى عصر نهضتهم الحديثة ، وما كان شناسى بشاعر الطبع والسجية ، إلا أنه ترجم نظماً عن الفرنسية ، وكان عظيم التوفيق فى ترجمته ؛ كما قال شعراً فى فنون

معروفة عند الفرنسيين مجهولة عند الأتراك ؛ وبذلك أدخل على الشعر التركى جديداً ؛ كما أنه طوع الشعر للتعبير عن النظريات العلمية : مثال ذلك : شعرٌ له يعرض فيه لنظرية دارون فى أصل الإنسان التى عرفها فى دراساته الأوربية وأراد إبداء رأيه للترك فيها فقال :

(فيلسوف كذوب خامل الذكر ، خال نفسه فيثاغورس هذا العصر ، فاعتقد تناسخ الأرواح ، واعتمد على تفسخ الأشباح ، فقال : كل ذى ذنب من الحيوان ستكون له يوماً صورة إنسان ! وسمع عاقل من كلام هذا الثور ذلك السخف ، فأفحمه كأنما حشا فاه بالعلف ، وقال له : كيف لا تؤمن بهذا المذهب أيها الإنسان ، وأنت عليه الدليل والبرهان ؟) .

وكأنما أراد أن يطلع الترك على فن من الشعر لا وجود له عندهم ، فنحا منحى جديداً وهو ينظم فيما يعرف عند الغربيين بالمصارحة بالحب ، وكان هذا الحب إنسانياً لا صوفياً ؛ كما أنه توخى ألا يورد فى كلامه إلا ألفاظاً تركية رغبة منه فى أن يطبع كلامه بالطابع القومى ، وتلك دعوة كان لها استجابة من بعد لدى أصحاب النزعة القومية من علماء الترك وأدبائهم الذين دعوا إلى تخليص التركية مما دخل فيها من ألفاظ عربية وفارسية ذهاباً إلى بعث قوميتهم وانفرادهم بها وحدها ! يقول شناسى : (هام الفؤاد بها ، منقطعة النظير فى حسنها بين الحسان ، عينى وقلبى عليها يتحاسدان ، زان صدرها هذان النهدان ، فكأنما على

غصن من ثلج كرتان ، وإذا اعتنق منا الصدران ، فلا تؤملن من الوجد شفاء للجنان ! ألا يذوب القلب من هذا الطرف المخمور . ومن عذب حديثها الشوق يثور ، بى إلى غدائرها الحنين ، أكان هذا مع ليلى شأن المجنون ؟ سأحفر قبرى براحتى قبل أن تحين من العشق منيتى ، وأكتب على صفائحه بدم من دمعتى !) .

فشناسى لشعراء الترك القدامى مقلد فى ذكر الغدائر والموت عشقاً كمجنون ليلى إلا أنه مجدد فى اقتباس هذا النمط من المنظومات عن الشعراء الفرنسيين ؛ فقد أخذ عنهم التشبيه بالكرتين من الثلج والمبالغة فى وصف العناق والحنان والحنين ؛ كما جاء قومه بجديد من ضروب الشعر وهو قصص الحيوان الذى قلد فيه الشاعر الفرنسى لافونتين ، وله مجموعة من الشعر ترجمها عن شعراء فرنسا المشاهير .

وما كان شناسى مجدداً فى الشعر والنثر فقط ، بل تجاوز هذين الفنين إلى الفن المسرحى ، وله مسرحية هزلية عنوانها (زواج الشاعر) تناول فيها بالنقد وضع المرأة فى عصره ، وهى الأولى من نوعها فى أدب الترك المسرحى .

ومن المجددين الوزير ضيا باشا الذى كان أدبه قديماً فى صورته وأسلوبه ، جديداً فى معانيه وفنونه ، وهو من المترجمين عن الفرنسية ، ترجم كتاب (إميل) لروسو ، وصدّره بمقدمة تحدث فيها عن طفولته فى سرد قصصى ، مبيناً بذلك أثر تربية الطفل فى تشكيل شخصيته بعد أن

يبلغ مبلغ الرجال ، وله أبيات من الشعر يدعو فيها إلى ضرورة تعلم اللغات الأوربية على أن ذلك ضرورة ثقافية ، وقال فيما قال : إن الإنسان لا يكفر باللسان ! ويستخلص من هذا أن بعض الناس كانوا يتأثمون من تعلم لغة غير المسلمين ، وهو يزجر عما يسميه جنون التعصب ، ويختم كلامه بقوله : أكثر من ترجمتك لتنفع بها أهل وطنك !

وإن التأمل فى هذا ليسفر عن أن الترجمة فى بداية عصر التجديد كان لها المقام الأول من الأهمية ، على أنها السبيل إلى الاطلاع على التراث الروحى والفكرى للغربيين ، وهذا مامسّت إليه حاجة الترك آنئذ ، وكان لهذه الدعوة صداها فى النفوس وإقناعها للعقول .

وظهر بين الترك من بعد من جمعوا بين ثقافة الشرق والغرب ، فسمت فى الأدب منزلتهم ، وفاضت قرائحهم بالروائع وكان أدبهم إنسانياً عاماً وتركيا خاصاً يعبر عن قضايا وطنهم فى فترة تحول سياسى واجتماعى وفكرى .

ونذكر أول ما نذكر منهم « نامق كمال بك » ذلك الوطنى الغيور الذى وقف الجانب الأكبر من أدبه المنظوم والمنثور على الوطنية ، فكان له الفضل فى توجيه الرأى العام ، وحسبنا قولنا : إن الشباب عكفوا ربع قرن من الزمان على قراءة أدبه وتدبر مبادئه ومُثله ، وذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الذى كان ظلوماً غشوماً ؛ فما منح شعبه الدستور عام ١٩٠٨ إلا بعد جهاد مرير فى سبيله .

ولنامق كمال مسرحية بعنوان « الوطن » تعرض فيها بالتلميح إلى الوضع السياسى آن ذاك وموقف السلطان من شعبه ، وهو يصف الترك فى حرب لهم مع الروس ، فمنع عرض المسرحية ونفى صاحبها إلى قبرص ؛ لما كان لها من أثر فى إيقاظ الوعى وتحريك الهمم ، وبذلك كان الأدب عظيم الأهمية وثيق الصلة بالقومية التركية موجهاً للأوضاع السياسية ، وانعقدت الأواصر بين نامق كمال وشناسى ، فشاركه فى تحرير جريدة (تصوير أفكار) ، وكتب فى كل ما يتعلق بأمر ذى بال من حياة الترك على تعدد مناحيها . وذكر حتمية إصلاح كل مامست إلى الإصلاح حاجته ، ودعا إلى حياة على العلم والعمل مدارها ، وله قصص كثيرة يقول أحد المستشرقين الإنجليز : إنها قريبة الشبه بقصص والترسكوت وألكسندر دوما فى جودتها وروعتها .

أما شعره فى الوطنية فمثاله قصيدة بعنوان الحرية يقول فيها : (أى ضير علينا من خوض غمار الهول إلى الحرية ، أيفر إنسان بروحه من ميدان الحمية ، ليكن لجلاد البغض والطغيان حبل كأنه الثعبان ، فإنه خير لدينا من قيود فى الأسر تقيدنا ! آه أيتها الحرية يالك من ساحرة بحسن الجبين ! أوقعتنا من الأسر بعشقك وكنا فى أسرنا منطلقين ، بالله لاتحجبى حسنك عنا يافاتنة لقلبنا ، لا غاب حسنك يوماً عن عين شعبنا !)

وحقيق بالذكر أن الترك لم يكن لهم عهد بتلك الحرية التى يناجيها

شاعرنا ويغنى لها ؛ فما وردت من قبل فى القديم من شعرهم ، ولا تضمن هذا الشعر مثل هذه المعانى ، وهذا من خصائص ذلك الأدب الذى ينطق عن روح تطورت ، ويصور أوضاعاً تبدلت ، والتقى الشرق والغرب فيه مع احتفاظ كل منهما بالخاص من مشخصاته وسماته ، واستعار الأدب التركى من أدب الغرب ما لم يكن له ، ولكن مع بقاء الفرق واضحاً بين الأصيل فيه والدخيل عليه .

ثم يأتى الترتيب على (عبد الحق حامد بك) الذى يختلف اختلافاً جوهرياً ونامق كمال بك فى أنه كان شاعراً غنائياً قصاصاً مؤلفاً مسرحياً ، ولكنه كان ذلك الفنان الذى تجود ملكته بالفن للفن وحده ؛ فما كان أدبه وسيلته إلى نشر المبادئ والدعوة إلى أفكار بعينها وإيقاظ الهمم كما هو الأمر عند نامق كمال الذى واجه المجتمع وحده ، بل إنه اكتفى فى الأعم الأغلب بالتعبير عن كوامن الشعور فى نفسه وهى التى لا سبيل إلى بت الصلة بينها وبين نفس الإنسانية ؛ ولذلك لم يكن صحفياً ولا موجهاً للرأى العام .

ومن مؤرخى أدب الترك من رفع منزلته فوق منزلة السلطان فقال : إن أهل العصور التوالى سوف ينسبون السلطان عبد الحميد إلى عصر عبد الحق حامد ، ولن يسعهم أن ينسبوا (عبد الحق حامد) إلى عصر عبد الحميد ! ونقتصر هنا على التصدى لأهم ما أتحف به الأدب التركى الحديث ، وهو مرثية فى كتابين : عنوان الأول (القبر) وعنوان الآخر

(الميت) ، ولتلك المرثية قصة بدأت فى مدينة بمباى حيث كان يعمل الشاعر فى القنصلية التركية ، ويعايش زوجته (فاطمة هانم) التى كان يحبها حبًّا لا يخفق به إلا قلب شاعر مثله ، ولا تحلم به إلا من فى مثل حسنها ، ولكن جرى القضاء بأن يشقى الهانئ ويعرو الجمال الذبول ، فقد مرضت فاطمة هانم بذات الصدر ، وكان حتماً أن يعود بها زوجها إلى إستانبول ، ورأت بمباى ذات يوم سفينة مقلعة تحمل عبد الحق ساهما واجماً وزوجته المريضة الجميلة مع صغيرين كأنهما من ضعاف الطير ، وماج بالسفينة بحر غضوب رهيب ، مماأثقل على فاطمة وطأة العلة ، وألقت السفينة مرساتها فى بيروت ، ونزلت بفاطمة صرعة الموت وأودعت الثرى فى تلك الأرض الغريبة ! ولئن كانت هذه القصة لوعة ودمعة – لقد عبر عنها بما يشبه لوعته التى لم تستطع لها كتماناً ودمعته التى جرت رقيقة رقيقة : فالقبر منظومة طويلة ينطوى عليها كتاب فى خمس وثمانين صفحة ، والشاعر فيها مستجيب لحزنه بحيث تملكه العاطفة تارة ويسيطر عليه التأمل تارة أخرى ، وبين التفجع والتأمل تتردد معانى المرثية التى يستهلها بقوله :

(أواه ! لم تبق لى دار ولم يبق الزمان على حبيبى ، فخفق الفؤاد بنحيبى ! كانت ملء عينى ، وانطلقت من يدى ، وارتحلت إلى الأبد قادمة من الأزل ، ومضيت لطيتى ، تبقى وتخلفت لتكون نهب البلى فى ركن لحد ، وما تبقى من أنيس القلب ويلاه إلا قبر فى بيروت أراه ! أين

أنشد هذه الجميلة ؟ ومن أسأل عن هذه المسكينة ؟ رحماك يارب هلا دللتنى وخبرتنى ! من ذا الذى ألقى بى فى هذا الشقاء والبلاء يارب ؟) ، وهذا من قوله هو ما يذكره ونذكره من قصته معها ، وهو ما يدور ببال من طرقته مثل تلك الفجيعة وذاك المكروه ، ولكن سرعان ما يستجيب عبد الحق حامد لهاتف شاعريته ليقول :

(انهضى فاطمة من لحدك ، ودومى على سابق عهدك ، ولا تكتمى هذا السر عنى ، واملئى بكلامك أذنى ، إن بى للهفة أريد لأسمع منك بنت شفة ، أطلعينى على بسمة الورد من ثغرك ، داوى فؤادى بدواء من عندك ، أتمى أيام عمرى بنظرة منك تسحرنى ، أو ضحكة تفتننى !)

أما مرثيته الأخرى (الميت) فهى تتمة على الأولى إلا أنها تفترق عنها برجحان الفكر فيها على الشعور ؛ فالشاعر لا يتوجع ولا يتفجع بل يتدبر ويتفكر ، والمنظومة بتمامها أقرب ما تكون إلى نظرات فى فلسفة البقاء والفناء ، ولولا أنه ذكر و يعته فى التراب تحت سماء بيروت لذهب عنا ، إننا إزاء شعر فى الرثاء ، يقول عبد الحق حامد :

(حرام والله ألاّ يتمثل تلك الحقيقة قلب الإنسان ، على حين رأت الحقيقة بحذافيرها العينان ، إلا أننا لا نملك إلا رغبة فى معرفة كنهها ، ولن أقول : إن العقل مقتدر على تعرف أمرها) فهذان المثالان من شعره صورة لما خطر على قلبه وقلب كل من مر بتجربته ؛ فالشعور والفكر فى كفتى ميزان ، إن رجحت إحداهما شالت الأخرى ، لقد ملأ عليه الحزن

رحاب نفسه أول الأمر ، ولما سكت عنه هونا مّا جعل العقل يفكر ، وحل الواقع محل الخيال !

ومن رجال الأدب وحملة القلم فى حركة التجديد تلك أكرم بك زاملى (نامق كمال) فى عمله الصحفى ، وعمل على التعريف بمبادئ نامق كمال وإن لم يكن فى عداد رجال الوطنية مثله ، وتميزت شخصيته الأدبية بالغنائية ودقة الحس وأستاذيته للأدب ؛ لأنه اشتغل بتدريسه وأخرج أول كتاب تركى فى أصوله . وإنا لواجدون فى طفولته ما يعلل خصائص شعره بعد أن أصبح أدق شعراء الترك حسًّا كما قيل عنه : كان شديد التأثر مرهف الحس إلى أبعد مدى وهو طفل ، حتى إنه كان إذا رقد فى مهده وانحنت عليه مربيته وجعلت تترنم له بالحزين من أغانيها الشركسية لينام — تأثر أعمق التأثر ، وستر وجهه ثم جعل يبكى مرير البكاء ، وقد لازمته هذه الرقة فى شعوره طوال حياته ، وشاء الله لهذه الرقة أن تتجلى فى شعره بعد أن مات عنه ثلاثة من أولاده .

وهنا نخص بالذكر ابنته (بيرايه) التى ماتت وهى فى المهد ، فبكاها بقصيدة من عيون الشعر التركى الحديث ، وهذا يلزمه أن تكون تلك القصيدة متضمنة خصائص شخصيته الإنسانية والأدبية على حد سواء ، وعنوان القصيدة (تحسر) ومفهوم الكلمة يغنى عن إطالة القول فى ضرورة أن تكون معبرة عن الوجدان وهى تخالف مرثية عاكف باشا فى حفيدته التى قصرها على وصف رقته لحفيدته وحزنه لفقدها وقد مضت

زهرة لمّا تتفتح ، كما تغاير ما قاله عبد الحق حامد فى فراق من كانت زوجةً وحبيبة بعد سقم ورحيل واغتراب ؛ (فأكرمُ بك) يمهد لمرثيته بمقدمة يحدثنا فيها عن باعثه على رثاء ابنته ، ومجمل ما يستخلص منها :

إن ابنته فارقت الحياة ساعة وردتها ، وقد فاته أن يضع علامة تميز قبرها بين القبور ، ومرت الأعوام تلو الأعوام ، وانطوى كل شىء تحت ظلمة النسيان ، غير أنه أحس ذات يوم فى طويته ما يدفعه دفعاً إلى زيارة المقبرة ، وهناك ذكر وديعته فيها إلا أنه لم يذكر موضع قبرها ، فجعل ضميره يؤنبه ويعذبه على التفريط فى حق فلذة كبده ، وغلبت عليه رقة شعوره فخيل إليه أنه أظلم الظالمين ! بلغت به القسوة منتهاها ، حتى قسا على من مرت به خفقة للنسيم ، فتحركت لذلك شاعريته ، وشعره أنين من عذاب الضمير وألم من الندم قال :

(ويلاه إن ابنتى بيرايه من هذه الأرض فى جوفها ، وذلك الثرى المظلم ينطوى على نورها ، لم أقدم هذا المكان منذ خمسة عشر عاماً ، فما أعرف موضعاً لقبرها ، أيتها المقبرة لا تبكينى ، أيتها الأشجار والأحجار أرشدينى ، يا بنيتى دفنتك ، وما بعلامة علمتك ، هلا نطقت يا بنيتى ؛ لأروى ثراك بدمعتى ! أى أرض يا طاهرة الجثمان حجبتك عن العيان ؟)

فهو يتذكر ما مضى فيأخذه الأسى ، ولا يعدو الحقيقة فيما يقول إلا أنه يجنح من بعد إلى الخيال ليرى ابنته طيفاً يناجيه : (تترائين لعين روحى الآن ، وشجيرة ورد نضيرة الأفنان ، وكأنها من الثلوج مدرجة فى

الأكفان . سترة بيضاء قد حجبتها ، وأخفت قدها وجوارحها وطلعتها ! العين تذرف عبرة ، والأسى فى النظرة ، وللجمال ذبول الزهرة . وبالمحبة يحيى الآمال فى الروح الوصال . آه يا بيرايه ولكنك أنت رقيق الخيال . هلا نطقت يا بنيتى لأروى ثراك بدمعتى ! أىّ أرض يا طاهرة الجثمان حجبتك عن العيان ؟)

إن هذه المرثية نمط وحدها بين المراثى من حيث كونها تعبيراً عن الضمير أو ما يعرف بالنفس اللوامة . وهى النفس التى اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروهاً . وهذا من صفات هذه المرثية مؤيد لما أوردناه فى صدر كلامنا عن (أكرم بك) من أنه أرق شعراء الترك شعوراً وأدقهم . وذلك ما فطر عليه منذ طفولته ولازمه وهو شاعر مجدد يطلعنا على هذه الرائعة من شعره فيذكر تلك القوة من قوى النفس التى تقوّم من مسلك الإنسان ، وذلك ما يصلح به أمره فى دنياه وأخراه .

ونوالى التأمل فى أدب الترك الحديث لنقف عند علم من أعلامه نضيف به مقوماً جديداً إلى تلك المقومات التى نتوخى الدقة فى اختيارها ، لنخرج من الجزئيات إلى الكليات . ونتصور ذلك الأدب فى أبرز سماته ، فنقف عند (توفيق فكرت بك) وهو صاحب مذهب فى الشعر ورأى فى السياسة ونزعة إنسانية تطبع أدبه بطابع خاص وتكسبه سمة على حدة تعد نقطة تحول فى الأدب الحديث ، وحسبنا أن نمهد

لايضاح ذلك بقولنا :

إنه أقرب المحدثين من أدباء الترك إلى مذهب الأوربيين ، وأكثرهم ميلاً إلى الأخذ به وتطبيقه على الأدب التركى ؛ كما كان أبعدهم عن ذلك الأدب التركى القديم الذى دار جانب كبير منه فى نطاق محدود من الفنون ، فمن المعلوم على سبيل المثال أن الفرس والترك والعرب كان البيت فى القصيدة لديهم مستقلا بمعناه ومبناه عما قبله وبعده ، وهذا ما جرى به العرف وساغ فى الذوق . أما (توفيق فكرت) فإنه يخرج على هذا المألوف ، ويجعل المعنى فى بيتين أو أكثر : كان المعنى الدافق لديه يجيش به البيت الواحد فيطغى على ما يليه ، وقد جعل ذلك دأبه فى مواضع عدة من قصائده ، ويستدل من هذا على أنه ينوط بالمعنى من اهتمامه أكثر مما ينوط بالصورة ، وإن كان لشعره مظهر مناقض لهذا المظهر الغربى لكثرة ما يورد فيه من ألفاظ فارسية ، تذكرنا ماألفه شعراء الترك القدامى من حشد الألفاظ الفارسية فى شعرهم رغبة منهم فى تنميق العبارة ، ولكننا نلمح فارقاً وهو أن (توفيق فكرت) لم يرد باستعارته من الفارسية تزويق الكلام بل أراد حشداً من الألفاظ ليؤدى بها الرقاق من معانيه ويعبر بها عن الدقاق من أفكاره .

عاصر توفيق فكرت السلطان عبد الحميد وهو معبر عن الأوضاع فى عصر هذا السلطان بعد أن منح شعبه الدستور على مضض عام ١٩٠٨ ، وله منظومة رائعة بعنوان (الضباب) يصف فيها إستانبول فى صباح شتاء

جللها بالضباب ، وعبر عن استبشاعه لمنظرها ، وجعل يذمها ويلعنها . وحقيقة الأمر أنه إنما قصد الطاغية لا حاضرة ملكه ، وما جسر على نشرها وإن تداولتها الأيدى فى خفية ، وكانت من أسباب سقوط عبد الحميد ومن قوله فيها :

(ولكن أيليق بك هذا الستر الصفيق المظلم ، وجدير بك هذا التستر يا مجمع المظالم ، وكأنما ألقت يد للخيانة فى أمك سمام اللعنة . فإن رجس الرياء يموج فى كل ذرة من ذراتك ، وما من صفاء ولا نقاء بك ، احتجبى أيتها النكراء ، احتجبى أيتها المدينة الشوهاء ، ولتكن رقدتك إلى آخر الأمر ، أنت يا فاجرة الدهر !) .

وهو رائد إصلاح يعقد الآمال بالجيل الخالف ليكون خيراً من الجيل السالف ، وله منظومة بعنوان (الغد) يبذل فيها النصح للشباب ويسميهم فيها فجراً مشرق البسمات ، ويريد بهم أن يشرقوا فى الآفاق حتى ينطفئ ذلك الماضى الذى أضرمه الزمان عليهم ناراً ، ويربأ بهم أن يسمحوا ليد الغريب أن تمتد إلى جبهة للعزة شماء أو لحية للوقار بيضاء !

وله مجموعة من الشعر أهداها إلى ولده ، يعظه فيها وينصحه . ونظمه فى النصائح مترتب على رغبته فى الإصلاح السياسى والاجتماعى فى وقت معاً . وهو فى التوجيه والهداية لا يسلك مسلك (نامق كمال) فى حماسته الوطنية التى تتجه إلى إثارة الشعور أكثر مما تعتمد على الحكمة .

وكذلك له مجموعة من الشعر تسمى القيثارة المحطمة وعنوانها توضيح

لنوعية ما تحويه ؛ فهو ساخط عبوس ، كما أنه آخذ بمذهب الشك على أنه أول درجة من درجات المعرفة متأثراً بالفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى يرى أن الشك فعل من أفعال الإرادة ينصب على الأحكام لا على التصورات والأفكار ؛ لأن التصورات من غير حكم ليست صادقة ولا غير صادقة ؛ وهو محزون متشائم حتى وهو فى نشوة الوصال : يقول فى قصيدة عنوانها (معك) : (تعالَىْ ، ليكن فى هذا الطريق الظليل معا سيرنا ، ولْنمض فى ظلمته المخضوضرة إلى آخر دهرنا ! تعالَىْ ؛ إن لهذا المكان المقدس أفياء ينضح منها عطر الإلهام ، فلنبق فيه إلى آخر دهرنا ، هذا الطريق المنير ، ما أجمل هذا الطريق الذى انفتح لنا وهو كامن فى صدر الوحشة ، تعالىْ : هذا الروض الجميل ملىء بالحياة والبهجة ، فلنقض فيه سحابة يومنا ، أما عشُّنا الخرب فلن يشهد من بعد عودتنا ، ولكن ما هذه الهوة فى نهاية هذا الطريق الجميل ؟ أليس حراماً أن تكون سوح الآمال كطريقنا ؟ ، وأخوف ما أخاف هو أن يفضى بنا طريق السعادة إلى مثل هذا الخراب ، نعم ما تلك الهوة فى هذا الطريق الجميل المستطاب ؟

ولئن تَغَشَّى التشاؤم والحزن أدب هذا الشاعر – لقد أشرق التفاؤل فى أدب عمر سيف الدين إلا أنه لم يكن شاعراً ، بل قصاصاً برز فى كتابة القصة القصيرة ، كان من رجال الجيش واشتغل بتدريس فنون القتال ، وأتقن الفرنسية أيما إتقان حتى نشر المقالات فى الصحف

الباريسية . وقد اختار الموضوع لقصصه القصار من تاريخ الترك القديم ، وإن فى هذا لدليلاً على أنه صنع ذلك بغية الإشادة بمناقب الترك ومحامدهم وعرض المثل على الشباب ليجدوا فيها الأسوة الحسنة : ومثال ذلك قصة رجل كان مثالاً للوطنىّ الغيور والفدائى الحق اتصل بعلمه أن تركيا أرادت أن توجه رسولاً إلى شاه العجم إلا أنها لم تجد من يقبل المضى إليه خشية بطشه ، فطلب المضى إليه وارتدى ثوباً مبرقشاً اشتراه بكل ما كان فى يده وهو فقير قليل المال ، فكأنه خاطر بالنفس وبذل المال ، فضرب المثل الأروع الذى يعتز بمثله قومه ، وتلك من عمر سيف الدين غيرة وطنية ونزعة قومية .

ونحن نجد هذه النزعة فى أجلى مظاهرها لدى مفكر كاتب شاعر يسمى ضيا كَوك إلب يعد رائد بعث الحضارة التركية قبل الإسلام : فكان من رأيه وجوب أن يكون التعبير بلغة تركية خالية مما دخل عليها من ألفاظ عربية وفارسية بحيث يفهمها الأتراك كافة ، وتوخى أن يكون تعبيره بلغة أهل إستانبول خاصة مبالغة منه فى إكسابها طابعها القومى الأصيل ؛ كما كان على رأى آخر فى الشعر التركى ، وهو عدم نظمه على أصول العروض العربى ؛ فمن المعلوم أن العروض التركى مأخوذ عن العروض الفارسى وهو المستعار من العرب ، وعنده أن هذا العروض لا يوافق الشعر التركى بعد تخليص التركية من العربية والفارسية ؛ فلزام أن يكون وزنه هجائياً وهو الوزن التركى القديم الأصيل .

ودرس العلوم السياسية والاجتماعية وأصدر جريدة تسمى (دجلة) دعا فيها إلى الثورة على حكم عبد الحميد . فزج فى غيابة السجن . ولم يكن ميالاً إلى اشتغال الترك بالتفكير النظرى . وقد كتب فى ذلك يقول : (كانت الفلسفة بالأمس تجمع بين العلوم ، فهى أشبه ما تكون بالمنطق العام . كما اهتمت بما وراء الطبيعة واتخذت صورة علم الجمال . أما اليوم فتغيرت عما كانت عليه . لأنها قدرت القيم السياسية والأخلاقية التى توجه حياة المجتمع . وتتشكل من القيم الأخلاقية ما يسمو بالإنسانية . ففلسفة اليوم هى علم الأخلاق العام . وهى لا تحلل ولا تعلل بل تخلق وتقدر) .

وله كتاب فى أسس القومية التركية ينادى فيه بضرورة بعثها . كما كان لا يؤمن بكيان الفرد بل بالجماعة وفى ذلك يقول متهكماً إن الفرد يجب أن يفنى فى جماعته فناء الصوفى فى الذات الإلهية ! وفى شعر له يقول : (نحن – كأفراد – ليس لنا من كيان . أما كأمة تركية فملء سمع لزمان ! نحن أهل السكون والدعة فى بلادنا ، وأهل النجدة والبأس على حدودنا) فهو وطنى ثورى التفكير بمعنى الكلمة . ولقد لقيت دعوته إلى إحياء القومية التركية حسن قبول فى نفوس الترك من بعد . وترددت أصداؤها فى الأعوام الأخيرة بخاصة .

وإذا ما نادى ضيا كوك إلب بالقومية التركية فقد نادى بالقومية الإسلامية (محمد عاكف بك) .

ورأى أن إصلاح الأمر لا يكون إلا بالعودة إلى الدين والأخذ بما جاء فى الكتاب الكريم . وهو فى هذا مناقض لضيا كوك إلب فى مذهبه ودعوته إلى القومية ؛ لأن الإسلام يزجر عن العصبية ولا يفرق بين قوم وقوم إلا بالتقوى والاستمساك بالعروة الوثقى ؛ وهو القائل فى شعر له : (أى فرق بين كردى وعجمى أيها الأنام ؟ هل كان للعنصرية وجود فى بلاد الإسلام ؟ لن يكون هذا . فإن خير البرية كان يلعن مبدأ القومية)

كما أن هذين الشاعرين المجددين يختلفان فى الاتجاه إلى الغرب : فبينما يؤثره الأول ويستوجبه — يستهجنه الآخر ويرغب عنه ؛ لأنه يدخل على المسلمين بالأباطيل والأضاليل ؛ مما يفسد عقيدتهم إفساداً لا يصلح معه دين ولا دنيا . وهو المعروف بشاعر الإسلام ؛ لأنه أولى أن يلقب بهذا اللقب .

وقد انعقدت الصلة بينه وبين علمين من أعلام الإسلام هما الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ، وهما مثله من الدعاة إلى الوحدة الإسلامية ، وقد ترجم إلى التركية تلك الرسالة التى رد بها الشيخ محمد عبده على الوزير الفرنسى هانوتو الذى تهجم على الإسلام ، كما ترجم تفسيره لسورة العصر ، وهذا شعر له يورى فيه عن وجهة نظره : (يقولون لى طوفت فى الشرق ما طوفت ، فبالله ألا قلت لنا ماذا رأيت ؟ فقلت : رأيت بلاداً تخربت ، وأسراً تفرقت ، والجباه قد جفت بالكسل ، والأذرع التى لا تعرف العمل ، والرءوس لا فكر بها ،

والقلوب لا حس بها ، والضمائر والصدأ عليها ، وعرفت الجور والطغيان والرياء والذل والهوان ، والمواقد خامدة باردة ، لا يؤتم بالأئمة ؛ فما من جبهة ساجدة ! بكيت حيثما مضيت ، وبكيت حيثما تلبثت ، أما الأفق ، فمن النار طوق ، يلتف وينثنى ، على عنق الإسلام المنحنى !) .

ولقد سيطرت عليه نزعته الإسلامية هذه وتمكنت فى نفسه ، وتجلت فى عامة شعره ، وبمقتضاها كان على ذكر دائم من المسلمين أجمعين ، يعبر عنهم ويوجه الخطاب إليهم ، وكان إذا حزبهم أمر وحاق بهم جور أصبحت نسبته إليهم نسبة الجسد إذا اشتكى منه عضو . فلما أبى مظفر الدين شاه عاهل إيران منح شعبه الحكم النيابى ، وسار فيه سيرة الذئب فى القطيع – نظم محمد عاكف قصيدة رائعة يندد به ويشدد النكير عليه ، وقال : إن الله سوف يأخذه بظلمه ويهلك عنه سلطانه .

وكانت بلاد الإسلام كلها بلاده فما فرق بين أرض وأرض ، ولقد اتخذ مصر مستقراً من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٦ م وهو عام وفاته فى إستانبول ، وسكن مدينة حلوان واشتغل بتدريس الفارسية والتركية فى جامعة القاهرة ، وفيها طبع الجزء السابع من ديوانه (صفحات) . ولما زار مدينة الأقصر نظم قصيدة عصماء عنوانها (فى الأقصر) ، وصف فيها النيل وآثار الفراعنة ، وهو فى وصفه لتلك الآثار يخرج على مألوف غيره من الشعراء ؛ فما طرب وما أعجب ولا فى التمجيد أطنب ،

بل نظر إليها نظرة مؤمن موقن ، لا يذهل عن العبرة شأن أولى الألباب ،
فعرف فى الهياكل الشاهقة والتماثيل السامقة شدة حرص الإنسان على
الخلود ، وقد أُنْسِى أن كل من عليها فان . فرفع له فى الفضاء ظلاً
كالدخان ، وما أشبه تلك الأحجار التى رفع هاماتها بأحجار قبور
لما دخله من غرور ! كما رأى فى الأصنام أشباحاً لقوم ظالمين لن يكونوا
بظلمهم إلا مأخوذين ، ولقد أذلهم الزمان فجدع أنوفهم ، وحطم
أذرعهم ، وسوى بروجهم بالأرض هدماً حتى امتلأ الرحب بأنقاض
وأشلاء تثير الرعب !

وإذا اكتفينا من القلادة بما أحاط بالعنق ، ووقفنا عند هذا الحد من
حديثنا عن أدب الترك - استبان لنا أنه انتهى بشاعر من المؤمنين المتقين ؛
كما بدأ الأدب التركى القديم بصوفى من أهل اليقين ، ولعل هذا الملحظ
يجعل للأدب التركى موضعاً بين الآداب الإسلامية ؛ كما ألمعنا إلى ذلك
من قبل .

الأدب الشعبى

للترك أدب شعبى ظهر لديهم منذ انبثق فى الوجود أدب عندهم ؛ فقد مرّ بنا أن علماء فصحاء من شيوع المتصوفة أرادوا هداية الخليقة إلى الحقيقة ، ولما رأوا أن لغتهم لا يفهمها إلا الراسخون فى العلم من الخواص وجدوا مسّ الحاجة إلى أن يوجهوا الخطاب إلى العوام بلغة يفهمونها ، وترتب على ذلك أن كان للشعر التركى وجود ، إلا أن هذا الشعر فقد على مر الأيام نزعته التعليمية وسمته الشعبية ، وأصبح شعراً فصيحاً لا يدرك سواد الناس شيئاً من لغته التركية المفعمة بما يزينها من ألفاظ فارسية وعربية ؛ ومن ثم قام الحائل بين أدب الخواص والعوام . ثم وجد من شعراء التصوف من نظموا شعراً صوفياً شعبياً ، وقد شاعت أشعارهم بين طبقات الشعب عبر تاريخ الأدب التركى ، ومنهم من كان من أهل العلم له التآليف والتصانيف ، ومنهم من لم يكن من هذا فى كثير ولا قليل ، وبهم أصبح للأدب التركى جانب فصيح وآخر شعبى ، وتشابه هذان الجانبان فى المضمون الصوفى ، وإن ختلفا فى كثير من الفنون .

ولقد كان هذا الأدب الشعبى صادق التعبير عن حياة الترك فى شتى

مناحيها ، وتناول بعضه من الأغراض ما تناول الأدب الفصيح : مثال ذلك أن الجند المعروفين بالانكشارية كان لهم شعراء يساكنونهم فى ثكناتهم ويتغنّون بنصرهم فى حروبهم ، ومن هؤلاء الجند من كان شاعراً ، كما عرف الأدب الشعبى شعراء معروفين بالعشاق ، بمعنى أن الصوفية عشاق الذات الإلهية كانوا يجولون وينشدون أشعارهم على أنغام قيثارة يعزفون عليها . وحقيق بالذكر أن هؤلاء الشعراء المغنين شكلوا هيئة خاصة بهم فى القرن التاسع عشر ، كما تطور شعرهم ؛ فبعد أن كانوا يرددون معانى فى شعر القدماء — ابتكروا جديداً من معان استلهموها مما يدور حولهم فى المتطور من حياتهم . وكان اجتماعهم فى المنتديات والمقاهى على الخصوص ولهم رئيس يرعى مصالحهم ويدبر شئونهم ، وتنبهت الدولة إلى مالهم من صفة إعلامية ، فاتخذت منهم وسيلتها إلى إذاعة ما تريد له أن يذاع فى الشعب .

وفى عهد محمود الثانى وعبد العزيز — كان لنحو عشرين من هؤلاء الشعراء الجائلين عمل إعلامى فى الدولة يتقاضون عليه راتباً فى كل شهر ، وانتسب كثير منهم إلى الطريقة البكتاشية ؛ مما جعل لأشعارهم ـحة صوفية ، إلا أن غيرهم قالوا شعراً غير صوفى ، فكان أوقع فى ـس وأقرب إلى الأفهام .

ـما ينهض دليلاً على تأثيرهم فى الرأى العام أن السلطان عبد الحميد أوجس منهم خيفة وتوقع أن يثيروا خواطر الشعب ضده ، وترتب على

ذلك تشتت شملهم ومزايلتهم إستانبول إلى قرى الأناضول حيث تهيأ لهم أن ينظموا فى أحداث الساعة ، فنظموا فى حرب البلقان والحرب العالمية الأولى وحرب الاستقلال وإعلان الجمهورية ، وهذا شاعر منهم يقول فى رثاء أتاتورك :

(أيها الصحاب ، تجمعوا فى ناحية ، تئن تركيا وقد غَشِيَتْ قلبها من الحزن غاشية ، ولتلبس على الغازى السواد ، ولتبك أتاتورك ما وسعت الدنيا من بلاد ، أشرقتَ على تركيا كأنك نور ، وانجلت حروبك عن عدو مدحور ، كنت فى الدنيا منقطع النظير ، فليكن بكاء الملائكة عليك فى السماء والناس فى الأرض بالدمع الغزير !) .

وبذكر شعراء الشعب الجائلين يُذكر المداحون أو القوالون ، والمداح هو ذلك القصاص الجائل الذى يقص القصص على من يلقون إليه السمع فى المنتديات ، ومعه قيثارة يداعب أوتارها ، وكانت قصص المداح فى سالف العصور دينية غالباً كقصة سيدنا حمزة عم الرسول ﷺ ، وهى مستمدة من قصة شعبية طويلة تسمى حمزة نامه بمعنى كتاب حمزة فى اثنى عشر مجلداً ، وتنسب إلى من يسمى حمزوى المتوفى عام ١٤١٢ م وتشكل جانباً عظيم الأهمية من أدب الترك الشعبى وهى نثر يتضمن شعراً .

وجرى العرف بأن يلقى المداح قصته بصوت يهدج خاشعاً ، وهو يجل ذكرى عم سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام ، ويناغم قيثارته

الحزينة بعبارات تفيض لها العيون من الدمع ، ويسود المجلس صمت متأمل حالم من هيبة الدين ، غير أن حال المداح تبدلت على مر العصور ، فأصبح ممثلاً مغنياً ، يتبسط ويطرح الوقار ؛ ليدخل البهجة على نفوس المستمعين إليه ، فيلوى لسانه بتقليد الناس من جميع الأجناس ويحكم تقليد الغجر واليهود فى تركيتهم التى تثير من الضحك موجات وموجات ؛ وبذلك أصبح للمداح صفة الممثل المضحك ، واستفاضت الشهرة لأحدهم حتى دعاه السلطان عبد الحميد إلى قصره ليستمع إلى أعاجيبه ومضحكاته !

وكان من مألوف العادة أن يبدأ المداح ما يسرد من قصص أو يعرض من أضاحيك وما يتصل من هذا كله بسبب قبل الغروب بنحو ساعة ، فيجلس إلى منضدة على منصة ، ويفتتح الكلام بمدح السلطان والدعاء له ، وهو فى هذا من كلامه ينمق عبارته ما وسعه أن ينمقها ، وبذلك تتجاوز لغته لغة العوام إلى لغة الخواص ، ثم يقص قصته على ذلك الوجه الذى تقص عليه قصص ألف ليلة وليلة ، وهى تتشابه موضوعاً فى الأعم الأغلب : كأن تصادف سيدة فى طريقها شاباً وسيماً فتدعوه إلى دارها فى أثناء غياب زوجها ، وإذا دخل الزائر الدار رفعت القناع عن وجه غاية فى الدمامة ، ثم يطرق الزوج باب الدار ، فترتعد فرائص الفتى كما ينخلع قلب السيدة رعباً ، إلى أن تتفتق لها حيلتها عن مخبأ يستره عن عين من لا يتردد فى إرواء الحسام بدمه ، وبعد مدة تحبس

فيها الأنفاس وتبلغ الروح التراقى تفلح فى تمهيد سبيل الفرار لمن يقسم بالله جهد أيمانه ألا يعود لمثلها أبداً !

وفى مثل هذه المشاهد تظهر قدرة المداح على عرض الفكاهة بكيفية تثير السرور والإعجاب ، غير أن لفن المداح جانباً آخر قد يكون مناقضاً لهذا الجانب ؛ لأنه جد وما هو بالهزل : كأن يعرض فى قصة لشرح مبدأ أخلاقى يدعو إلى الأخذ به ، فيفرق بين الفضيلة والرذيلة ويميز الخير من الشر ؛ كما قد يتجاوز هذا إلى نقد المتوارث من تقاليد المجتمع ، أو ما هو أعظم خطراً ؛ كتشديد النكير على القاضى الذى يتجانف عن العدل فى الحكم ، وقد يغلظ اللائمة على من يأخذ الرشوة أو يأكل مال غيره ظلماً ، فللمداح أدب شعبى تشكلت جوانبه وتعددت أغراضه . ومن الشعر الشعبى عند الترك تلك الأغانى التى تغنيها الأم لطفلها حتى ينام ، وقد صادفت هذه الأغانى هوى فى نفوس الترك حتى نظمها بعض شعراء الفصحى وضمنوها رقاق المعانى ، كما تغنى بها المشاهير من المغنين : ومن تلك الأغانى أغان غاية فى سطحيتها وسذاجتها ، وأخرى لانعدم فيها روعة للشاعرية وتعبيراً عن الأم فى خاصة أمرها وعارض من شجونها مثل :

(نم يا بنى ، فلديك لليقظة أيام ، إن الأمس ليرمق الغد باهتمام ، لقد استشهد أبوك فأعقب مجده وشرفه ، أما أنت فعليك أن تمضى خلفه ، يوم القصاص حذار ثم حذار أن تخلفه نم يا بنى ؛ لقد عاود

البرق الظهور وجعل يخطف ، وأبوك الشهيد ينظر إلينا بعين لا تطرف إن جرحه يفيض بنجيع أحمر ، فلأعصبه ، انتظر واصبر ، لا تبك ، جدير بأدمعى أن تقطر وتقطر !) .

فهذه نغمة حزينة تنبعث من أعماق تلك الأم التى فقدت زوجها للوطن شهيداً إلا أنها لم تستيئس من روح ربها ، فتطلعت إلى ولدها رجاء أن يثأر لأبيه ، فتغمر السكينة نفسها ، وياطالما وجدنا فى التركيات أماً مثلها ، فقد توالت حروب الترك وما كان صرعاها عندهم إلا من الشهداء .

الكتاب القادم

مضادات الحيوية

د . محمد صادق صبور

رقم الإيداع	١٩٧٨/٢٦٠٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٣٦ – ٨

١١/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

يتصل الأدب التركي بالأدب العربي من أطراف قريبة ، ومن ثم فنحن لا نجد أنفسنا ونحن نقرأ هذا الأدب غرباء عنه . .

وهذا مدخل لهذا الأدب قديمه وحديثه . . شعره ونثره . . بقلم متخصص في هذا الأدب يتوخى الإنصاف والنظرة السديدة .

٤٥٠٦٩٢/١